حوار إبليس اللعين مع رب العالمين

وحديثه للخلق في القرآن الكريم

(دراسة بلاغية)

إعداد

د. زينب كمال سليم محمد

مدرس البلاغة والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية . بنات بني سويف

المستخلص:

ورد الحوار مع إبليس ، والحديث على لسانه في أكثر من موضع في القرآن الكريم ، أما حواره فكان مع رب العزة – جلّ علاه – ورد في قصة خلق آدم وتكليف الملائكة وإبليس بالسجود لآدم – عليه السلام – وذلك في أربع سور من القرآن الكريم: (الأعراف والحجر والإسراء وص).

وأما حديثه للمخلوقين فكان مع آدم – عليه السلام - ، ومع البشر، وغيرهم، وهنا يقع الكلام من طرف واحد وهو طرف إبليس – عليه لعنة الله – أما الطرف الآخر فيظهر في الحديث بالإيحاء لا بالتصريح ، فعندما يقول لآدم وزوجه – عليهما السلام- : " مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ " يقتضي قوله هذا أن وقع بينهم حوار بدليل إتيان لفظة القسم على وزن (المفاعلة) في (وقاسمهما) ، التي تقتضي المجاذبة في القول بين القبول والرفض ، وحديثه مع آدم على هذا النمط جاء في سورتين هما (الأعراف وطه) ، أما حديثه للبشر وغيرهم فقد ورد في ثلاث سور(الأنفال وإبراهيم والحشر).

وقد جاء البحث في مقدمة وتمهيد ، ومباحث ثلاثة ، ونظرة عامة حول الأسلوب الحواري لإبليس ، وخاتمة:

المبحث الأول : حوار إبليس اللعين مع رب العالمين .

وفيه أربعة مواضع تحاور فيها المولى – جل علاه – مع إبليس في سورة الأعراف والحجر والإسراء و(ص).

المبحث الثاني : حديث إبليس اللعين لآدم وزوجه -عليهما السلام-.

وفيه كلام إبليس لآدم وحواء –عليهما السلام- في السورتين الكريمتين (الأعراف وطه).

المبحث الثالث : وسوسة الشيطان للضالين من الإنس والجان .

ويشتمل على مواضع ثلاثة تكلم فيها الشيطان مع الضالين من الإنس، أو الإنس والجن جميعا، وردت تلك المواضع في سور ثلاث (الأنفال وإبراهيم والحشر) .

نظرة حول الأسلوب الحواري لإبليس

وضح البحث فيها كيف بدا أسلوب إبليس في حواره وفي حديثه :

فبالنظر إلى أسلوب إبليس في الحوار مع رب العالمين أجد حواره يتحول إلى المراء ، ومعنى المراء : " **الجدال بالظنون الكاذبة، والتخرصات الباطلة ، فهو الجدال بالباطل وعن الباطل.**"؛ حيث حكم قاطعا بأفضليته على آدم – عليه السلام - ؛ لخلقه من النار ؛ توهما منه أن النار أفضل من الطين ، فبنى حكمه على باطل ؛ إذ لا أفضلية للنار على الطين ؛ فكل منهما عنصر له خصائصه ومميزاته ، ووجه النفع فيهما يختلف بحسب طبيعة العنصر ، ثم النظر للمخلوق لا مما خُلق ؛ ولذا وضّح له الله – عز وجل – أنه – جل علاه – خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه ، بمعنى أن الأمر خارج عن حدود القياس ، ولكن قاس إبليس بعقله فأخطأ ، ثم بنى على خطئه ، فأساس البناء كان على الظن الكاذب ، والوهم الباطل ، المعلل بالحجة الواهية ، فاتبع أسلوب الحوار الحجاجي ، وغايته إقناع رب العزة بحجته ؛ ليفلت بفعلته وينجو من العقاب ، فقال (خَلقتني من نارٍ وخلقته من طين) " **وذلك بإقامة البرهان عن طريق التحاكم إلى العقل** " فقاس على حدود عقله ، وتناسى أن الأمر خارج عن حدود القياس .

وإبليس في حواره لا يتبع آداب الحوار ؛ فبدا غير متجرد من الهوى، بل اتبع هواه وسار وراء رغباته في التفضيل على آدم – عليه السلام – ثم الانتقام منه ومن ذريته ، ومتحررا من الأدب في خطابه مع رب العزة ، وظهر ذلك في قسمه وتأكيده وإعلانه التحدي الصارخ لرب العالمين .

وبالبحث تبين لي نتائج منها :

- يكثر الاستفهام في المواضع الأربعة التي تحدثت عن قصة السجود لآدم كعامل أساسي لتنشيط الحوار وإبراز ما استتر في نفس إبليس .

- في أغلب المواضع التي تحدثت عن قصة إبليس يتحدث إبليس بشيء من اللين عندما طلب من المولى تأخيره ليوم يبعثون ؛ أي قبل إجابة طلبه إلا في سورة الإسراء فتشتد لهجته ويعلن عن حقده مكثرا من الاستفهام الإنكاري ؛ توضيحا لعلة امتناعه عن السجود.

- يغلب التأكيد على حديث الشيطان في كل المواضع التي تبرأ فيها من الإنسان بعد كفره ، فهو غالبا ما يؤكد بـ(إن) ؛ ليرفع من قلوبهم توهم عودته لنصرتهم ، ففي الأنفال : " إني برئ منكم - إني أرى ما لا ترون – إني أخاف الله " ، وفي إبراهيم :" إن الله وعدكم وعد الحق – إني كفرت بما أشركتموني من قبل – إن الظالمين لهم عذاب أليم "، وفي الحشر :" إني برئ منك – إني أخاف الله رب العالمين ".

الكلمات الدالة : *الحوار مع إبليس - القرآن الكريم - سورة الأعراف - سورة الحجر- سورة الإسراء - سورة ص - آدم (عليه السلام).*

Abstract

Dialogue with the devil, talking on his tongue came in more than one place in the Koran, but his dialogue with the Lord of Glory came in the story of the creation of Adam and commissioning of angels and the devil prostrate to Adam - peace be upon him - in four chapters of the Koran: (ALAraf, ALHagre, ALEsraa and sad).

As for his speech to the creatures was with Adam - peace be upon him - and with humans, and others, here's speech is one-sided, a party of the devil - the curse of God - while the other party appears in the modern suggesting not to declare, when he says to Adam and his wife"your Lord dident forbid you this tree except that you become angles or become of the immortal and he swore to them " I'm to you from among the sincere advisors and talking with Adam on this pattern came in two sections (ALAraf and Taha), while talking to humans and others were reported in three chapters (and Anfal Ibrahim al-Hashr).

The search came at the front of the boot, and three sections, and an overview of the conversational tone of the devil, and a conclusion:

First topic: Stan dialogue with the Lord of the Worlds.

This dialoguecame in four positions: (ALAraf, ALHagre, ALEsraa and sad).

The second topic: Satan talk to Adam and his wife in two positions: (ALAraf and Taha).

The third topic: the whispers of Satan to bad mankind and the elves.

And it includes a three-spoke places where the devil with the bad of mankind, or mankind and the eleves all, there were those three positions in (Anfal, Ibrahimand AlHashr).
Look around the conversational tone of the devil Explain how the devil started his dialogue in his speech:

Through the style of the devil in the dialogue with the Lord of the worlds I find the turns to be alier he is arguing with falsehood and falsehood. He thought that he was better than Adam as he is from fire but Adam from mud .He built his rule on a falsehood; it is not an advantage for the fire on the mud; Each is an element that has characteristics and advantages, and the benefit varies depending on the nature of the element , then consider the creature not creating; and so God clear to him - the Almighty - that he created with his own hands and breathed into him of his soul, that is beyond measurement limits, but a cruel devil his mind overshot, then built on his

mistake, foundation of the building was on false conjecture, and the illusion of falsehood and follow the way of dialogue protest, and purpose of persuading the Lord of Glory of his case ; to escape the deed and escapes punishment, he said (created me from fire and created him from clay) "by establishing the proof by resorting to the mind," he measured to the limits of his mind, forget that it is beyond the limits of measurement.

And the devil in his dialogue does not follow the etiquette of dialogue; it seemed non-stripper of fancy, but follow the whims and followed behind his desires in preference to Adam - peace be upon him - and then take revenge on him and his descendants, and impolitely in his speech with the Lord of Glory, and appeared in his swear and its emphasis and declared the challenge to Lord of the worlds.

The research showed me the results, including:

•The frequently question is in the four positions that talked about the story of the prostrate to Adam as a key factor to stimulate dialogue and highlight what is inside the devil.

• In most places that I talked about the story of the devil, the devil speaks a little soft when he asked the Lord to delay it for the Day of

Resurrection; before the answer to his request only in Surat Al-Isra he announced his hatred and asked dennying questions as an explanation for the cause of his failure to prostration.

• tends to emphasize in his talk in all positions, which discharged the man after his disbeliefe, it is often confirmed he will never return for their support, in "Anfal"

"I am innocent of you - I see what you do not see - I fear God "In Abraham:" God promised you right promise and I promiseed you but I betrayed you.

- The oppressors have a painful punishment. "In Hashr:" I am innocent of you - I fear Allah, the Lord of the worlds. "

Descriptors: *Dialogue with Satan - The Holy Quran - Surah Al - A'raf - Surah Al - Hijr Surat Al - Isra. Adam*

الاستشهاد المرجعي:

محمد ، زينب كمال سليم (٢٠١٦). حوار إبليس اللعين مع رب العالمين وحديثه للخلق في القرآن الكريم: دراسة بلاغية. ـ حولية كلية الآداب .جامعة بني سويف . ـ مج ٥ ، ج ١(٢٠١٦) .ـ ص ص ٢١٥- ٣١٤

التمهيد

أصل الحوار في اللغة من" (الحَوْر) بفتح الحاء وسكون الواو ، وهو الرجوع عن الشيء وإلى الشيء ، قال لبيد :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

ويقال : حار بمعنى : رجع ، وهم يتحاورون أي يتراجعون ، وحاورته : راجعته الكلام. "[1]

وعليه فالحوار يعني : المراجعة في الكلام ، قال تعالى :" والله يسْمَع تَحاوركُما " (المجادلة ١)، ويأتي الحوار بمعنى المخاطبة قال تعالى :" وكانَ لهُ ثمرٌ فقالَ لصاحبِهِ وهو يُحَاوره " (الكهف٣٧) ؛ أي يخاطبه ويكلمه .

ومعنى الحوار اصطلاحا :" الحديث بين اثنين أو أكثر يتم فيه تبادل الكلام بينهما بطريقة متكافئة فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر. "[2]

وقد ورد الحوار مع إبليس ، والحديث على لسانه في أكثر من موضع في القرآن الكريم ، أما حواره فكان مع رب العزة – جلّ علاه – ورد في قصة خلق آدم وتكليف الملائكة وإبليس بالسجود لآدم – عليه السلام – وذلك في أربع سور من القرآن الكريم : (الأعراف والحجر والإسراء و ص) .

---

١ ينظر لسان العرب لابن منظور مادة (حور) ط١ دار المعارف ١٩٨١م

٢ في أصول الحوار وتجديد علم الكلام د/ طه عبد الرحمن ٣٣ ط٣ المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء بالمغرب ٢٠٠٧م

أما ما جاء من ذكر القصة في سورتي البقرة والكهف فلم يرد بهما حوار أو حتى حديث من طرف إبليس ، يقول المولى - جل علاه – في سورة البقرة :

"وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ[1] ".

وفي سورة الكهف :" وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا[2] " .

وأما حديثه للمخلوقين فكان مع آدم – عليه السلام - ، ومع البشر ، وغيرهم ، وهنا يقع الكلام من طرف واحد وهو طرف إبليس – عليه لعنة الله – أما الطرف الآخر فيظهر في الحديث بالإيحاء لا بالتصريح ، فعندما يقول لآدم وزوجه – عليهما السلام- : " مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ " يقتضي قوله هذا أن وقع بينهم حوار بدليل إتيان لفظة القسم على وزن (المفاعلة) في (وقاسمهما) ، التي تقتضي المجاذبة في القول بين القبول والرفض ، وحديثه مع آدم على هذا النمط جاء في سورتين هما (الأعراف وطه) ، أما حديثه للبشر وغيرهم فقد ورد في ثلاث سور(الأنفال وإبراهيم والحشر).

[1] سورة البقرة آية ٣٤-٣٥

[2] سورة الكهف آية ٥٠

تلك هي المواضع التي تحدث فيها الشيطان مظهرا القول معلنا عن نفسه ، وهي المواضع التي يدور حولها البحث ، وخلاف تلك المواضع لم يتناولها البحث ؛ إذ لم يأت الحديث على لسانه بل تحدث عنه القرآن الكريم وعن إغوائه للبشر وعن طرق تجنبه بالاستعاذة والتمسك بالصراط المستقيم ، ومن ذلك قوله الله تعالى :" فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ[1]"، وقوله تعالى:" إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ[2]" . صدق الله العظيم وأعاذنا وإياكم من الشيطان الرجيم .

[1] آل عمران آية ٣٦

[2] آل عمران آية ١٧٥.

المبحث الأول

حوار إبليس اللعين مع رب العالمين

ورد حوار إبليس مع رب العالمين في قصة خلق آدم ، وتكليف الملائكة وإبليس بالسجود له ، حوار بين الأعلى والأدنى ، ومع ذلك تلمس في الحوار تبادل الحديث دون استئثار من المولى – عز وجل - رغم كون الحديث بين المولى – جل علاه – وبين أسفل السافلين إبليس – عليه لعنة الله - ، ويدور الحوار بأسلوب وصفي تصويري يعرض مشهدا قصصيا واقعيا بين الحق المطلق والباطل المطلق ؛ ليرسم لنا صورة واضحة المعالم عن حقيقة تكبر إبليس وعناده ، وعن كونه العدو اللدود لبني آدم؛ تحذيرا من وسواسه ، وهو بذلك يطرح لنا قيمة أخرى من قيم الحوار وهي إمكانية تبادل الحوار بين ألد الأعداء خصومة ، فقد حاوره رب العزة في أربعة مواضع في القرآن الكريم ، ففي سورة الأعراف يقول المولى – جل علاه - :

وَلَقَد خَلَقناكُم ثُمَّ صَوَّرناكُم ثُمَّ قُلنا لِلمَلائِكَةِ اسجُدوا لِآدَمَ فَسَجَدوا إِلّا إِبليسَ لَم يَكُن مِنَ السّاجِدينَ ﴿١١﴾ قالَ ما مَنَعَكَ أَلّا تَسجُدَ إِذ أَمَرتُكَ قالَ أَنا خَيرٌ مِنهُ خَلَقتَني مِن نارٍ وَخَلَقتَهُ مِن طينٍ ﴿١٢﴾ قالَ فَاهبِط مِنها فَما يَكونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فيها فَاخرُج إِنَّكَ مِنَ الصّاغِرينَ ﴿١٣﴾ قالَ أَنظِرني إِلى يَومِ يُبعَثونَ ﴿١٤﴾ قالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرينَ ﴿١٥﴾قالَ فَبِما أَغوَيتَني لَأَقعُدَنَّ لَهُم صِراطَكَ المُستَقيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِن بَينِ أَيديهِم وَمِن خَلفِهِم وَعَن أَيمانِهِم وَعَن شَمائِلِهِم وَلا تَجِدُ أَكثَرَهُم شاكِرينَ ﴿١٧﴾ قالَ اخرُج مِنها مَذءومًا مَدحورًا لَمَن تَبِعَكَ مِنهُم لَأَملَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُم أَجمَعينَ﴿١٨﴾

وفي سورة الحجر يقول تعالى :

" وَإِذ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنّي خالِقٌ بَشَرًا مِن صَلصالٍ مِن حَمَإٍ مَسنونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذا سَوَّيتُهُ وَنَفَختُ فيهِ مِن روحي فَقَعوا لَهُ ساجِدينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُم أَجمَعونَ ﴿٣٠﴾ إِلّا إِبليسَ أَبى أَن يَكونَ مَعَ السّاجِدينَ ﴿٣١﴾ قالَ يا إِبليسُ ما لَكَ أَلّا تَكونَ مَعَ السّاجِدينَ ﴿٣٢﴾ قالَ لَم أَكُن لِأَسجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقتَهُ مِن صَلصالٍ مِن حَمَإٍ مَسنونٍ﴿٣٣﴾ قالَ فَاخرُج مِنها فَإِنَّكَ رَجيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيكَ اللَّعنَةَ إِلى يَومِ الدّينِ ﴿٣٥﴾ قالَ رَبِّ فَأَنظِرني إِلى يَومِ يُبعَثونَ﴿٣٦﴾ قالَ فَإِنَّكَ مِنَ المُنظَرينَ ﴿٣٧﴾ إِلى يَومِ الوَقتِ المَعلومِ﴿٣٨﴾ قالَ رَبِّ بِما أَغوَيتَني لَأُزَيِّنَنَّ لَهُم فِي الأَرضِ وَلَأُغوِيَنَّهُم أَجمَعينَ ﴿٣٩﴾ إِلّا عِبادَكَ مِنهُمُ المُخلَصينَ ﴿٤٠﴾قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُستَقيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبادي لَيسَ لَكَ عَلَيهِم سُلطانٌ إِلّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوعِدُهُم أَجمَعينَ ﴿٤٣﴾ لَها سَبعَةُ أَبوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنهُم جُزءٌ مَقسومٌ ﴿٤٤﴾.

وفي سورة الإسراء يقول المولى :

وَإِذ قُلنا لِلمَلائِكَةِ اسجُدوا لِآدَمَ فَسَجَدوا إِلّا إِبليسَ قالَ أَأَسجُدُ لِمَن خَلَقتَ طينًا ﴿٦١﴾ قالَ أَرَأَيتَكَ هذَا الَّذي كَرَّمتَ عَلَيَّ لَئِن أَخَّرتَنِ إِلى يَومِ القِيامَةِ لَأَحتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلّا قَليلًا ﴿٦٢﴾قالَ اذهَب فَمَن تَبِعَكَ مِنهُم فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُم جَزاءً مَوفورًا ﴿٦٣﴾ وَاستَفزِز مَنِ استَطَعتَ مِنهُم بِصَوتِكَ وَأَجلِب عَلَيهِم بِخَيلِكَ وَرَجِلِكَ وَشارِكهُم فِي الأَموالِ وَالأَولادِ وَعِدهُم وَما يَعِدُهُمُ الشَّيطانُ إِلّا غُرورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبادي لَيسَ لَكَ عَلَيهِم سُلطانٌ وَكَفى بِرَبِّكَ وَكيلًا ﴿٦٥﴾

وفي سورة (ص) يقول الله تعالى :

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴿٨٥﴾

وبتتبع المواضع الأربعة أجد تشابها في مقدماتها التي سبقت القصة؛ حيث يشتركون جميعا في **عامل التحذير** ، فالتمهيد الذي سبق المواضع الأربعة فيه **دعوة إلى الإيمان** ، **وتحذير من كَفَر بهلاك الأمم السابقة مع التذكير بالبعث أو الحساب** ، وكأن المولى – جل شأنه – يتخذ من هذا التحذير الواضح في المواضع الأربعة تمهيدا لذكر معصية إبليس وتوعده غواية الخلق ؛ ليوضح عداوته لبني آدم ويحذر من اتباعه ، فاتضح الهدف المرجو من الآيات وتتابعت في نظم بليغ يقول :

احذروا الكفر فالهلاك كالسابقين ؛ فهناك عدو لدود يتربص بكم الدوائر؛ للتتشاركوا معه جحيم جهنم .

ففي **سورة الأعراف:** يأمرهم المولى **بالإيمان** ذاكرا **هلاك الأمم السابقة** ؛ **منذرا ومحذرا** قال تعالى : **"اتّبِعوا ما أُنزِلَ إِلَيكُم مِن رَبِّكُم وَلا تَتَّبِعوا مِن دونِهِ أَولِياءَ قَليلًا ما تَذَكَّرونَ وَكَم مِن قَريَةٍ أَهلَكناها فَجاءَها بَأسُنا بَياتًا أَو هُم قائِلونَ "** موضحا أن ختام الأمر **الحساب** فمن فائز ومن خاسر قال تعالى :" **وَالوَزنُ يَومَئِذِ الحَقُّ فَمَن ثَقُلَت مَوازينُهُ فَأُولـئِكَ هُمُ المُفلِحونَ وَمَن خَفَّت مَوازينُهُ فَأُولـئِكَ الَّذينَ خَسِروا أَنفُسَهُم بِما كانوا بِآياتِنا يَظلِمونَ**" ، ومنطلقا من التحذير إلى قصة الخلق قائلا – جل علاه - :" **وَلَقَد خَلَقناكُم ثُمَّ صَوَّرناكُم ثُمَّ قُلنا لِلمَلائِكَةِ اسجُدوا لِآدَمَ** " وخاتما ببيان عناد واستكبار إبليس ؛ ليحذر من إتباعه ، قال تعالى :" **قالَ اخرُج مِنها مَذءومًا مَدحورًا لَمَن تَبِعَكَ مِنهُم لَأَملَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُم أَجمَعينَ**".

وفي **سورة الحجر:** يوضح لنا قيمة **الإيمان** بندم الكفار وتمنيهم الإيمان قال تعالى :" رُبَما يَوَدُّ الَّذينَ كَفَروا لَو كانوا مُسلِمينَ " ذاكرا **هلاك الأمم السابقة منذرا ومحذرا** قال تعالى :" ذَرهُم يَأكُلوا وَيَتَمَتَّعوا وَيُلهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوفَ يَعلَمونَ وَما أَهلَكنا مِن قَريَةٍ إِلّا وَلَها كِتابٌ مَعلومٌ "مبينا أن مصيرهم الختامي بعد الموت إلى الحشر للحساب قال تعالى :" وَلَقَد عَلِمنَا المُستَقدِمينَ مِنكُم وَلَقَد عَلِمنَا المُستَأخِرينَ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحشُرُهُم إِنَّهُ حَكيمٌ عَليمٌ " ومنطلقا إلى قصة الخلق :" وَلَقَد خَلَقنَا الإِنسانَ مِن صَلصالٍ مِن حَمَإٍ مَسنونٍ" وخاتما ببيان عناد واستكبار إبليس ؛ ليحذر من اتباعه ، قال تعالى: "إِنَّ عِبادي لَيسَ لَكَ عَلَيهِم سُلطانٌ إِلّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوعِدُهُم أَجمَعينَ "

وفي **سورة الإسراء:** يبدو **التحذير** السابق للقصة بدوا واضحا بتحد صارم قال تعالى :" قُل كونوا حِجارَةً أَو حَديدًا أَو خَلقًا مِمّا يَكبُرُ في صُدورِكُم فَسَيَقولونَ مَن يُعيدُنا قُلِ الَّذي فَطَرَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ " **محذرا** من الشيطان قال تعالى :" وَقُل لِعِبادي يَقولُوا الَّتي هِيَ أَحسَنُ إِنَّ الشَّيطانَ يَنزَغُ بَينَهُم إِنَّ الشَّيطانَ كانَ لِلإِنسانِ عَدُوًّا مُبينًا " ومحذرا من **العذاب وإهلاك القرى** قال تعالى :" إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحذورًا وَإِن مِن قَريَةٍ إِلّا نَحنُ مُهلِكوها قَبلَ يَومِ القِيامَةِ أَو مُعَذِّبوها عَذابًا شَديدًا كانَ ذلِكَ فِي الكِتابِ مَسطورًا "، ومنطلقا من **التخويف والتحذير** إلى قصة عناد إبليس واستكباره قال تعالى :" وَإِذ قُلنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنّاسِ وَما جَعَلنَا الرُّؤيَا الَّتي أَرَيناكَ إِلّا فِتنَةً لِلنّاسِ وَالشَّجَرَةَ المَلعونَةَ فِي القُرآنِ وَنُخَوِّفُهُم فَما يَزيدُهُم إِلّا طُغيانًا كَبيرًا وَإِذ قُلنا لِلمَلائِكَةِ اسجُدوا لِآدَمَ فَسَجَدوا إِلّا إِبليسَ" ، مبينا مصيره ومن اتبعه قال تعالى :" قالَ اذهَب فَمَن تَبِعَكَ مِنهُم فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُم جَزاءً مَوفورًا "

وفي **سورة (ص):** يذكر تخاصم أهل النار موضحا أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ما هو **إلا نذير** مبين لنبأ عظيم من أعرض عنه فجهنم مثواه قال تعالى :" قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ "ومنطلقا من الإنذار إلى قصة الخلق واستكبار إبليس قال تعالى :" إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ" خاتما ببيان مصير من اتبعه قال تعالى :" قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ" .

إذن يتبين لي- والله أعلم بمراده - **أن عامل التحذير والإنذار هو العامل المشترك في التمهيد للقصة في السور الأربع** ، وكأن المولى – جل علاه- ينذر من سوء الخاتمة فأول من ساءت خاتمته إبليس اللعين ، وهو المتعهد بإشراك تابعيه معه في سوداوية المصير .

• خلق آدم والأمر بالسجود له

افتتح المولى حديثه الكريم في سورة الأعراف ببيان خلق آدم قال تعالى :" **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ** "فالمراد بذلك آدم - عليه السلام - ، وإنما "قيل بالجمع (خلقناكم – صورناكم) ؛ لأنه أبو البشر[1] " أو (نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين مع أن المراد بهما خلق آدم – عليه السلام – وتصويره حتما ؛ توفية لمقام الامتنان حقه ، وتأكيدا لوجوب الشكر عليهم بالرمز إلى أن لهم حظا من خلقه – عليه السلام – وتصويره ؛ لما أنهما ليسا من الخصائص المقصورة عليه كسجود الملائكة له – عليه السلام – بل من الأمور السارية إلى ذريته جميعا ؛ إذ الكل مخلوق في ضمن خلقه على نمطه ، ومصنوع على شاكلته ، فكأنه الذي تعلق به خلقهم وتصويرهم ؛ أي خلقنا أباكم آدم

[1] كما قال تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - :" وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى " البقرة ٥٧ ، والمراد آباؤهم الذين كانوا في زمان موسى – عليه السلام- ، ولكن لما كان ذلك على الآباء الذين هم أصل صار كأنه واقع على الأبناء " تفسير القرآن العظيم لإسماعيل بن عمر بن كثير – تحقيق : سامي بن محمد السلامة ٣٩١/٣ ط٢ دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م

طينا غير مصور ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم سار إليكم جميعا.[1])

وضمير التكلم (نا) في (خلقناكم – صورناكم) ؛ تعظيما للمولى – جل شأنه - ، وجملة (ولقد خلقناكم) مؤكدة باللام و(قد) وكأنها رد على منكر ؛ لأن المقام السابق يبرز فيه جحود النعمة وقلة الشكر فقد قال تعالى في الآية السابقة :" **ولَقد مَكّناكُم في الأرضِ وَجعلْنَا لكم فِيهَا مَعَايشَ قليلا مَا تَشْكرُون** " فأكد لهم نعمته وفضله عليهم بأن خلق آباهم آدم وصوره وكرمه بسجود الملائكة له ، ونتج عن خلقه وتصويره خلقهم وتصويرهم ؛ فهو تأكيد للنعمة المقتضية للشكر لا للنكران .

وأمر الملائكة بالسجود لآدم أمر على حقيقته ؛ يقتضي وجوب الامتثال ، ورد في سورتي الأعراف والإسراء بالصيغة نفسها :" **ثُمّ قُلنا لِلمَلائِكَةِ اسجُدوا لِآدَمَ**"

والضمير فيهما للتكلم (قلنا) فهو أمر مباشر أتى على وتيرة واحدة في السورتين ، بينمايختلف الضمير في سورتي (الحجر – ص) ؛ حيث يخاطب سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم - فيقول– جل علاه - :"**وَإذ قالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إنّي خالِقٌ بَشَرًا مِن صَلصالٍ مِن حَمَإٍ مَسنونٍ** " وفي (ص) يقول – جل شأنه - :" **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ**" ،

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود) للإمام أبي السعود محمد بن محمد العمادي٣/٢١٥ط١ دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان د.ت

وهنا **ألحظ مفارقة** في السور الأربع ، وهي أنه عندما تحدث إلى الملائكة مباشرة في سورتي (الأعراف والإسراء) لم يذكر نوع الخلقة التي خُلق منها آدم - عليه السلام – أي لم يذكر أنه خُلق من طين بل قال مباشرة :" **قلنا للملائكة اسجدوا** " ولكن عندما تحدث إلى النبي محمد – صلى الله عليه وسلم - :" **وإذ قال ربك إني خالق** " في سورتي الحجر و (ص) ذكر نوع خلقة آدم ، فقال في الحجر :" **إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن صَلصالٍ مِن حَمَإٍ مَسنونٍ** " ، وقال في (ص) :" **إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ** " ، والعلة في ذلك أحسبها – والله أعلم بمراده – أنه في (الأعراف والإسراء) عندما خاطب الملائكة مباشرة بقوله تعالى في السورتين :" **قلنا للملائكة** " وهم على علم بخلق آدم ، فقد خُلق أمامهم وعلى مرأى من أعينهم فلم يكونوا بحاجة إلى معرفة نوع الخلقة التي منها خُلق ؛ لذا لم يذكرها ، ولكن يختلف الأمر في سورتي الحجر و (ص) ؛ حيث فيهما إخبار لسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم - ، فلم يقل هنا :" **قلنا للملائكة** " ، ولكن :" **قال ربك للملائكة** " بكاف الخطاب لمحمد – صلى الله عليه وسلم - وهو لم يشهد خلق آدم – عليه السلام – ولم يره بعينه ؛ فأخبره الله – عز وجل- عن نوع الخلقة وأنها من صلصال من حمأ مسنون، ومن طين .

وعبّر في سورتي الحجر و (ص) بـ(اسم الفاعل) في قوله :" **إني خالق** " ، ولم يقل :(سأخلق) مع أن الأمر لم يكن كائن بعد بدليل قوله بعده :" **فإذا سويته** " ؛ ليفيد تحقق وقوع الفعل وكأنه قد خُلق ، فهو أمر كائن لا محالة ، وفيه تأكيد للملائكة على حتمية خلقه ؛ إذ قالوا في سورة البقرة :" **أتجعلُ فِيها مَن يُفسدُ فِيها وَيسفِكُ الدمَاءَ ونحنُ نُسبِّح**

بِحمدكَ ونُقدسُ لَكَ "[1] ، فأورد لهم الدلالة بلفظ اسم الفاعل ؛ ليؤكد على حتمية خلقه ؛ لحكمة يعلمها الله كما قال لهم في سورة البقرة :" **إنّي أعلمُ مَا لا تَعْلَمُون**[2].

ونكّر لفظة (**بشرا**) ؛ تعظيما لآدم وتكريما له ؛ إذ خلقه الله – عز وجل- بيديه ونفخ فيه من روحه .

وقوله :" خالق " في سورتي (الحجر و ص) يشمل الخلق والتصوير المعطوف بـ(ثم) في سورة الأعراف :" **خلقناكم ثم صورناكم** " ؛ بدليل قوله تعالى :" **خَالِق بَشرًا مِن صَلصَالٍ مِن حَمَأ مَسْنُون**"، والمسنون: (المتغير المنتن[3]) ولا يتغير الطين إلا إذا مرّ عليه وقت ، هذا الوقت هو زمن التراخي في (ثم) المعطوف بها في سورة الأعراف بين الخلق والتصوير.

وعطف بالفاء في قوله تعالى :" **فإذا سَويته ونَفختُ فيه مِن رَوحي**" لأن التسوية ونفخ الروح مرحلة تالية للخلق والتصوير ، يقول الزمخشري : (سويته : عدلت خلقته وأكملتها وهيأتها لنفخ الروح فيها ، ومعنى " ونفخت فيه من روحي : وأحييته)[4] .

فالتسوية ونفخ الروح هي المرحلة النهائية لخلق آدم – عليه السلام - .

---

[1] سورة البقرة (من الآية٣٠)

[2] سورة البقرة (من الآية٣٠)

[3] مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر الرازي – مادة (سنن) ط١ المكتبة العصرية – بيروت ١٩٩٩م

[4] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله الزمخشري – تعليق/خليل مأمون شيحا ص٥٦٠ ط٣ دار المعرفة بيروت –لبنان ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م

و(النفخ في العرف إجراء الريح من الفم أو غيره في تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها ، والمراد هنا تمثيل إفاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها وليس هناك نفخ حقيقة[1]) .

إذن هي استعارة تمثيلية ؛ حيث استعار هيئة النفخ الحقيقية لسريان الروح في جسد آدم – عليه السلام - ؛ **وبلاغتها** تظهر في ذلك التشريف العظيم لآدم – عليه السلام - ؛ إذ خلقه من غير أبوين وشرفه ورفعه مكانا عليا .

وورد الأمر بالسجود في سورتي (الأعراف والإسراء) بلفظ (اسجدوا) ، بينما ورد في سورتي (الحجر و ص) بقوله : " **فاقعوا له ساجدين** " والأمر على حقيقته يقتضي الوجوب في الحالتين ، **وتجري تلك المفارقة** بحسب سياق السور الكريمة ، ففي سورتي (الأعراف والإسراء) : الأمر مباشر " **اسجدوا لآدم** " دون تعليق على الشرط ، فبعد الخلق والتصوير قال الله تعالى للملائكة (اسجدوا) ، ولكن في سورتي (الحجر وص) ورد الأمر معلق بالشرط قال تعالى :" **فَإِذا سَوَّيتُهُ وَنَفَختُ فيهِ مِن روحي فَقَعوا لَهُ ساجِدينَ** " فالشرط اقتضى سرعة الامتثال فور تحقق فعل الشرط ، وسرعة الامتثال بدت واضحة في قوله تعالى :" **فَقَعوا لَهُ ساجِدينَ** " ؛ أي شرطت عليكم فور تسويته ونفخ الروح فيه أن تخروا له ساجدين ، وأتى بالفاء في جواب الشرط ؛ لتزيد من سرعة الامتثال وتحقيق الجواب بمجرد وقوع فعل الشرط وهو نفخ الروح ، مع ما يفيده اسم الفاعل (ساجدين) من الالتزام بتنفيذ الأمر .

---

[1] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الألوسي البغدادي ٣٦/١٤ ط١ دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان د.ت

• امتثال الملائكة للأمر وعصيان إبليس

وعن امتثال الملائكة للأمر قال تعالى في سورتي (الأعراف والإسراء) :" **فسجدوا** " دون تأكيد ، بينما قال في سورتي (الحجر وص):" **فسجد الملائكة كلهم أجمعون** " ، فجاء بالقول مؤكدا **وتجري تلك المفارقة لأسباب** ؛ حيث إنه لما قال في سورتي (الأعراف والإسراء): " **اسجدوا** " دون شرط ودون توضيح لنوع الخلقة التي منها خُلق آدم وضح امتثالهم للأمر بقوله :" **فسجدوا** " ، أي : (اسجدوا فسجدوا) ، ولكن لما شرط عليهم السجود فور الانتهاء من مراحل خلقه موضحا أنه من طين في سورتي (الحجر وص) وهم ما هم عليه من الخلق (من النور[1]) أكد على امتثالهم للأمر فقال :" **فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ** " فذكرهم بنوعهم (الملائكة) ، ولم يذكرهم بالضمير (فسجدوا) ، وأكد سجودهم بلفظ (كلهم) ثم بـ(أجمعين) ؛ ليخبرنا أنه رغم خلقه من طين من حمأ مسنون إلا إن الملائكة سجدوا عن آخرهم لم يتخلف منهم ملك ، وهم خلق النور الأمر الذي يمهد للتوبيخ المطلق لأبليس على اعتراضه على جنس خلق آدم ، هذا ومن جانب آخر أنه لما كان الخطاب في سورتي (الحجر و ص) خاصة موجه للنبي محمد – صلى الله عليه وسلم – فقد قال تعالى في بداية القصة : " **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ** " لما كان الأمر كذلك وضح امتثال الملائكة مؤكدا سجودهم عن آخرهم

[1] عن عمرو بن دينار :" خُلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجان من مارج من نار ، وخُلق بنو آدم مما وُصف لكم " صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري - تحقيق: نظر بن محمد الفاريابي ٤/ ٢٩٩٦ ط١ دار طيبة ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م

، وكأنه في هذين الموضعين يُعرِّض بالمشركين ؛ حيث امتثل الملائكة أجمعون فما بال قومك يا محمد ينكرون ويجحدون.

وفي المواضع الأربعة استثنى إبليس من الملائكة وليس منهم ؛ لأنه لما (أُمر بالسجود معهم فغلبوا عليه في قوله تعالى :" **فسجد الملائكة** " ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم استثناء متصلا[1])

وذكر قوله تعالى :" **لم يكن من الساجدين** " مع أنه قد عُلم من الاستثناء امتناعه عن السجود ، فالاستثناء في قوله تعالى :" **فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إلا إبليس** " يدل على امتناعه ، ومع ذلك ذكر بعد الاستثناء قوله تعالى :" **لم يكن من الساجدين** " ؛ للتأكيد على قبيح فعله ؛ إذ امتنع عن تنفيذ أمر الله تعالى ؛ استكبارا وتعاليا بغير وجه حق.

فلما كان المقام (مقام التسجيل على إبليس بعدم السجود ، والتشهير والتوبيخ بتلك القبيحة الهائلة كان خليقا بالتصريح جديرا بالاحتياط ؛ لضعف التعويل على القرينة لائقا بكمال الإيضاح والتقرير ، فعدل عن طريق الحذف وإن كان الكلام دالا على المحذوف إلى منهج الذكر والتصريح به [2].)

[1] تفسير الكشاف ٩٣١

[2] تفسير روح المعاني للألوسي ٨٧/٨

وهنا يحاوره المولى – جلّ علاه – منكرا عليه استكباره قائلا – جل علاه -:" **قالَ ما مَنَعَكَ أَلّا تَسجُدَ إِذ أَمَرتُكَ** " الأعراف١٢- " **قالَ يا إِبليسُ ما لَكَ أَلّا تَكونَ مَعَ السّاجِدينَ** " الحجر٣٢- " **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ** " (ص)٧٥

فاصلا بين فعل القول (قال) وما سبقه ؛ لشبه كمال الاتصال، فلفظ القول استدعى سؤالا فحواه:(ماذا قال له المولى حين أبى السجود ؟) وأتت الجملة بعد فعل القول مجيبة عن السؤال وكاشفة لمجرى الحوار بين الخالق – جلّ شأنه – وإبليس – لعنه الله – .

يقول الإمام عبد القاهر – عليه رحمة الله - :" واعلم أن الذي تراه في التنزيل من لفظ (قال) مفصولا غير معطوف ... جاء على ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال ، فلما كان في العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم :" دخل قوم على فلان فقالوا كذا " أن يقولوا : "فما قال هو ؟" ويقول المجيب : قال كذا ، أُخرج الكلام ذلك المُخْرَج ؛ لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه ، وسُلك باللفظ معهم المسلك الذي يسلكونه[١] ." وقد ورد ذلك كثيرا تبعا لتسلسل الحوار.

والاستفهام في جميع ما سبق استفهام إنكاري توبيخي ينكر عليه تكبره وعناده ورفضه لأمر المولى – جلّ علاه - .

[١] دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني – تحقيق/ محمود محمد شاكر ٢٤٠ ط٣ مطبعة المدني بجدة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م

وتظهر بلاغة الاستفهام من مجرى السياق ؛ حيث يعزز الاستفهام بما يزيده إنكارا لفعل إبليس ، وبما يزيده توبيخا ، ففي الأعراف دعم الاستفهام بقوله :" **إذ أمرتك** " ؛ ليبالغ في الإنكار على إبليس عدم الامتثال وقد كان الأمر من خالقه من المولى – جل علاه - ، كيف يرفض الأمر المباشر من الخالق ؟!! وفي (الحجر) دعم الإنكار بحرف الجر (مع) الذي يفيد المعية مع الملائكة ، وكأنه يبالغ في الإنكار عليه؛ إذ لم يمتثل مع أشرف خلق الله موبخا إياه :كيف لا تذعن لأمر قد أذعن له من هم خير منك ، قد أذعن له خلق النور ملائكة الرحمن فكيف تأبى أنت ؟!! وفي (ص) يدعم الإنكار والتوبيخ بقوله تعالى :" **لما خلقت بيدي** " أي كيف تأبى السجود لمن زدته شرفا فخلقته بيدي ، وللزيادة في الإنكار عليه اتبعه بسؤال آخر :" **أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ** " ؛ لمزيد من التقريع والتوبيخ .

وقال – جلّ علاه – في الأعراف :" **قالَ ما مَنَعَكَ أَلّا تَسجُدَ** " بينما قال في (ص) :" **مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ** " فجاءت (لا) بعد (إن) في الأعراف؛ (لتأكيد الجحد[1]) ، ولا يقال في مثل هذا أنه ذكر (ما) في " **ما منعك** " ثم (لا) في " ألا " فيكون نفي النفي إثبات ؛ لأن قاعدة نفي النفي إثبات قاعدة غير مطردة يرى ذلك الدكتور إبراهيم أنيس يقول : أن قاعدة (نفي النفي إثبات) ليست بشيء مطرد ، وذلك لأن ؛ (اللغات حين تكرر الأداة في موضع ما من الجملة إنما تهدف بذلك إلى توكيد فكرة النفي)[2]

---

[1] تفسير ابن كثير ٣٩٢/٣

[2] من أسرار اللغة للدكتور إبراهيم أنيس ١٠٩ ط١ لجنة البيان العربي ١٩٥١م

ورب العزة – جل علاه - في كل تلك الأسئلة يعلم حاله ولا يفتقر لجوابه ، ولكنه ساق المعلوم مساق غيره[1] ؛ لتوبيخ إبليس ، ولإظهار معاندته وكفره واستكباره وافتخاره بأصله وإزرائه لأصل آدم ، ومخالفته أمر ربه معتقدا أن سجوده سجود الفاضل للمفضول ، فالاستفهام يلعب دورا مرموقا في كشف خبايا إبليس وهتك ستره أمام بني آدم ، إلى جانب أنه يدعم أسلوب الحوار الذي يتغلغل بدوره في القصة لكشف ماهية إبليس وبيان خفاياه ونواياه أمام البشر.

وهنا يأتي دور إبليس – لعنه الله – في الحوار ، فعلى لسانه في (الأعراف) و (ص) :" **قالَ أَنا خَيرٌ مِنهُ خَلَقتَني مِن نارٍ وَخَلَقتَهُ مِن طينٍ** " ، وفي الحجر :" **قالَ لَم أَكُن لِأَسجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقتَهُ مِن صَلصالٍ مِن حَمَإٍ مَسنونٍ** " ، وفي الإسراء :" **قالَ أَأَسجُدُ لِمَن خَلَقتَ طينًا** "

سأله المولى – جل علاه – لما امتنعت عن السجود ؟ ومقتضى الحال أن يكون الجواب : منعني كذا ، ولكنه أجاب بـ" **أنا خير منه** " ؛ والعلة في ذلك (أنه استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم ، وبعلة فضله عليه ، وهو : أن أصله من نار وأصل آدم من طين ، فعلم منه الجواب وزيادة عليه ، وهو إنكار للأمر واستبعاد أن يكون مثله مأمورا بالسجود

وينظر : أساليب النفي في القرآن د / أحمد ماهر البقري ص٩٠ ط١ المكتب العربي الحديث بالإسكندرية ١٩٨٩م

[1] تجاهل العارف : سماه السكاكي " سوق المعلوم مساق غيره " وإنما آثرت استخدام مصطلح (سوق المعلوم مساق غيره) تأدبا مع المولى – جل علاه - عن استخدام لفظة (التجاهل)/ ينظر : مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي ٤٦٥ ط٢ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧م

لمثله ، كأن يقول : من كان على هذه الصفة كان مستبعد أن يأمر بما أُمر به[1].

وهو بذلك قد وضح علة المنع وزيادة ، وهو بيان ما يكمن في نفسه من الشعور تجاه آدم – عليه السلام - ؛ إذ تباهى بعنصره ، وحقر العنصر الذي خُلق منه آدم – عليه السلام - .

وفي الأعراف و(ص) أعاد الفعل الدال على الخلق بقوله:(خلقتني) و (خلقته) ، ولم يقل : (خلقتني من نار وهو من طين) ؛ للتقرير والتأكيد على ما اعتقده وما يدور بخلده من أن خلقه أعظم من خلق آدم ؛ ولذا نكّر لفظتي (نار – طين) الأولى للتعظيم في ظنه ، والثانية للتحقير على ما اعتقده من أن النار خير من الطين .

وفي الحجر :" **لَم أَكُن لِأَسجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقتَهُ مِن صَلصالٍ مِن حَمَإٍ مَسنونٍ**"

اللام في (لأسجد) للجحد والإنكار[2] ، أتت لتأكيد نفي الخبر " وإنما كانت خاصية التوكيد فيها ... لأن معنى الخبر الداخلة عليه أن مجرد الإرادة لا تنصرف إليه ، فعدم انصراف الفعل إليه أولى[3]"

فالمعنى إذن : أن إرادة إبليس لا تكون أبدا للسجود لآدم ، وعلل ذلك بكونه بشرا خُلِق من طين

---

[1] تفسير الكشاف ٣٥٧

[2] تأتي لام الإنكار أو الجحد بعد (ما كان) و (لم يكن) ، ولا تصحب إلا النفي ، وهي بعد (ما كان) في القرآن أكثر مما هي بعد (لم يكن) ؛ إذ وردت في الأولى سبع عشرة مرة ، وفي الأخيرة ثلاثا فقط "/أساليب النفي في القرآن الكريم ص١١٤

[3] السابق ص١١٥

واستخدم (لم) في النفي دون (ما) فقال :(لم أكن) ؛ لأن " لم آكد في النفي من ما "[1] ، فالمقام كله يغلب عليه توكيد النفي وجحده وإنكار أن يقع السجود من مثله خاصة وقد ظن نفسه ذا شأن ؛ لخلقه من نار .

وعبّر بالمضارع في (أسجد) ؛ ليفيد نفي الوقوع نفيا متكررا ؛ لينفي توقع سجوده في المستقبل ، وكأنه يعني : ما سجدت ولن أسجد ولا ينبغي لي السجود ، وفيه مزيد من بيان تكبره وطغيانه .

ونكّر لفظة (بشر) ؛ للتحقير لجنس آدم – عليه السلام – فنظرته له من البداية نظرة دونية احتقارية .

وساق إبليس الجواب في سورة الإسراء عن طريق الاستفهام الإنكاري ، قال تعالى على لسان إبليس – لعنه الله – " **قالَ أَأَسجُدُ لِمَن خَلَقتَ طينًا** " منكرا على الله – عز وجل – أن يأمره بالسجود لآدم وقد خلقه من الطين ، والاستفهام يوضح بالغ استكباره وتجرأه على خالقه ، واحتقاره لخلق الله ؛ فتراكيب الآية توحي ببالغ احتقاره لآدم – عليه السلام ؛ حيث استخدم الموصول (من) في قوله " **لِمَن خَلَقتَ طينًا** " ؛ للتحقير ، ونكّر لفظة (طينا) ؛ محتقرا ومزريا للعنصر الذي منه خلق آدم ، وعلى هذا فإن العلة التي امتنع لها إبليس عن السجود هي اعتقاده أن النار أفضل من الطين ، وهي كما يقول ابن كثير في تفسيره :

" من العذر الذي هو أكبر من الذنب ... فشذ من بين الملائكة بترك السجود ؛ فلهذا أبلس من الرحمة ، فأخطأ – قبحه الله – في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين ، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم

[1] السابق ص١١٢

والأناة والتثبت ، والطين محل النبات والنمو ، والزيادة والإصلاح ، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة ؛ ولهذا خان إبليس عنصره ، ونفع آدم عنصره من الرجوع والإنابة والاستكانة ، والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والرجوع[1] ."

[1] تفسير ابن كثير ٣٩٢/٣

عقاب إبليس على عصيانه

وهنا يصل الحوار إلى مرحلة العقاب ، يقول الله تعالى في سورة الأعراف :" **قالَ فَاهبِط مِنها فَما يَكونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فيها فَاخرُج إِنَّكَ مِنَ الصّاغِرينَ** " ، وفي (الحجر) :" **قالَ فَاخرُج مِنها فَإِنَّكَ رَجيمٌ وَإِنَّ عَلَيكَ اللَّعنَةَ إِلى يَومِ الدّين** " ، وفي (ص) :" **قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ** "

فعطف الفعلين (اهبط – اخرج) في الأعراف بالفاء ؛ ليبين سرعة العقاب ؛ إذ استكبر إبليس وتحدى الخالق ، والحوار كله يدور في مجرى سريع الوقائع ما إن نفخ الله – جل علاه - الروح في آدم –عليه السلام – إلا وأمر الملائكة بالسجود له ، فسجدوا إلا إبليس أبى ، فحاوره المولى – جل شأنه – عن علة امتناعه ، فأجابه متعجلا برد تجاوز فيه كل الحدود ، فأجابه الله – جل شأنه – بعقاب أسرع من رده كائن في قوله :" فاهبط " " فاخرج " ، والأمر على حقيقته يقتضي الوجوب ، والضمير في (منها) " عائد إلى الجنة ، ويحتمل أن يكون للمنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى[1] " ، وقيل :" من الخلقة التي أنت فيها ؛ لأنه كان يفتخر بخلقته ، فغير الله خلقته ؛ فاسودّ بعدما كان أبيض ، وقَبُح بعدما كان حسنا ، وأظلم بعدما كان نورانيا[2]."

وأكد قوله تعالى :" **إنك من الصاغرين** " بـ(إن) ؛ ليعكس له اعتقاده ، وينكس عليه ظنه ، فقد تكبر متوهما أنه أفضل من آدم بأفضلية الجنس الذي منه خُلق ، فقلب له اعتقاده مزريا إياه مؤكدا على أنه من

[1] السابق ٣/٣٩٣

[2] تفسير الكشاف ص٩٣٢

الصاغرين الأذلين ، وعن عمر – رضي الله عنه - :" من تواضع لله رفع الله حكمته ، وقال : انتعش نعشك الله ، ومن تكبر وعدا طوره وهصه الله إلى الأرض[1] ".

وفي الحجر و (ص) :" **قالَ فَاخرُج مِنها فَإِنّكَ رَجيمٌ** "

و (رجيم) (فعيل) بمعنى (مفعول)[2] ،" فقال "رجيم" ولم يقل (مرجوم)، لأنّ الرجيم أبلغُ من المرجوم؛ إذ فيه كأن صفة الرجم تلازمه.

فالرجيم : المرجوم ، ومعناه :" شيطان من الذين يرجمون بالشهب ، أو مطرود من رحمة الله ؛ لأن من يطرد يرجم بالحجارة ، ومعناه : ملعون ؛ لأن اللعن هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها.[3]"

وإذا كانت (رجيم) بمعنى مطرود ، فهي على الكناية ؛ (لأن من يطرد يرجم بالحجارة[4]) ، وعلى معنى الكناية تحمل من المبالغة في الذلة والإهانة قدرا كبيرا ؛ إذ استعلى بعنصره الذي منه خلق فأهانه الله وجعله مطرودا مرجوما .

---

[1] الجامع لشعب الإيمان / لأحمد بن حسين البيهقي – تحقيق : مختار أحمد الندوي – عبد العلي عبد الحميد حامد في باب : من حسن الخلق ٨١٣٩- ط١ مكتبة الرشد ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م والمصنف لعبد الله بن محمد أبي شيبة - تحقيق: حمد بن عبد الله – محمد بن إبراهيم١٣ /٢٧٠ط١ مكتبة الرشد ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م .

[2] إنّ مجيء (فعيل) بمعنى (مَفْعُول) كثير في اللغة العربية، ولكنّه مع كثرته غير مقِيْسٍ ، ومرجعه عندهم السمّاع ،ويُعْدَل من (مَفْعُول)، إلى (فعيل)، إذا أُريد الدّلالة على المبالغة والشدّة ، وإذا كان (فعيل)، بمعنى (مفعول)، استوى فيه المذّكر والمؤنث، فلا تلحقه هاء التأنيث " / ينظر : شرح الكافية في النحو-لرضي الدين الاستراباذي (ابن الحاجب)٢٦٦/١ بيروت ١٩٧٩م ، وشرح التصريح على التوضيح لخالد بن عبد الله الأزهري ٨٠/٢ ط١دار إحياء الكتب العربيّة- مصر د.ت .

[3] تفسير الكشاف ٥٦١

[4] تفسير روح المعاني ٤٧/١٤

وقيل معناها : مرجوم بالشهب ، فتكون جوابا على استكباره أيضا ؛ " حيث تضمن سوء حاله ، فكأنه قيل : إن المانع لك عن السجود شقاوتك وسوء خاتمتك ، وبعدك عن الخير لا شرف عنصرك الذي تزعمه ، وقيل تُضمنه ذلك – يعني سوء حاله - ؛ لأنه علم منه أن الشرف بتشريف الله تعالى وتكريمه فبطل ما زعمه من رجحانه إذ أبعده الله تعالى وأهانه وقرب آدم – عليه الصلاة والسلام – وكرمه ، ... وفي تفسير (الرجيم) بالمرجوم بالشهب إشارة لطيفة إلى أن اللعين لما افتخر بالنار عُذِّب بها في الدنيا فهو كعابد النار يهواها وتحرقه ١. "

ونكّر (رجيم) ؛ مبالغة في الطرد والذلة ، ولذا أكدها بـ(إن) ، ولم يقل : (فأنت رجيم) ، وقدم الجار والمجرور (عليك) خبر (إن) على اسمها (اللعنة) ، والأصل :(وإن اللعنة عليك) ؛ للتخصيص ؛ ليخصه باللعنة المقصورة عليه من يوم أبى السجود إلى يوم الدين .

ويكمن سره البلاغي في زرع الحسرة والندامة في صدر إبليس ؛ إذ لم يُخَص أحد بلعنة ممتدة مثل لعنته – أعاذنا الله - .

وجعل غاية اللعن إلى يوم الدين لا يعني أنها تنفك عنه يوم الدين بل تلزمه ، ويضاف إليها عذاب الله الذي وعده به .

يقول الزمخشري :" وضرب يوم الدين حدا للعنة : إما لأنه غاية يضربها الناس في كلامهم كقوله: " **مَا دَامَت السّماوَات والأرْض** " في التأييد ، وإما أن يراد أنك مذموم مدعو عليك باللعن في السماوات

[1] ينظر: السابق ١٤/٤٧

والأرض إلى يوم الدين من غير أن يعذب ، فإذا جاء ذلك اليوم عُـذِّب بمـا ينسي اللعن معه[1] ."

ووردت الآية في سورة الحجر بلفظ :" **وَإِنَّ عَلَيكَ اللَّعنَةَ إِلى يَـومِ الدِّين** " ، بينما وردت في (ص) بلفظ :" **وَإِنَّ عَلَيـكَ لعنَتـي إِلـى يَـومِ الدِّين** " ، فخص اللعنة بكونها من الخالق حيث أضافها إليه ، وفيهـا مزيـد من الانتقام ، وإنما اختصت سورة (ص) بذلك –أحسبه والله أعلم بمراده – أن بها مزيدا من بيان استكبار إبليس وتعاليـه علـى خالقـه ؛ حيـث ورد فيها قوله تعالى :" **إِلَا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** " وقوله تعالى:" **أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ** " فلما بدا فيها مزيدا مـن اسـتكبار إبلـيس وتجبره على خالقه ، زاده الله في العقاب ؛ فخصه بلعنته إلى يوم الـدين ؛ ليزرع في قلبه مزيدا من التحسر والألم على طغيانه .

طلب إبليس اللعين من رب العالمين

وبعد أن عاقبه الله تعالى باللعنة والطرد من رحمته ، لم يعد إبليس لرشـده ؛ فيطلـب المغفـرة والرحمـة ، ولكنـه اسـتمر فـي غيـه وعنـاده واستكباره الطاغي ، فطلب الإمهال حيا ليوم البعث ، ففـي الأعـراف يقـول تعالى على لسانه :" **قالَ أَنظِرني إِلى يَومِ يُبعَثونَ قالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرينَ** " ، وفي الحجر و(ص) :" **قالَ رَبِّ فَأَنظِرني إِلى يَومِ يُبعَثونَ قالَ فَإِنَّـكَ مِنَ المُنظَرينَ إِلى يَومِ الوَقتِ المَعلومِ** " ، وفي الإسـراء :" **قـالَ أَرَأَيتَـكَ هـذَا الَّذي كَرَّمتَ عَلَيَّ لَئِن أَخَّرتَنِ إِلى يَومِ القِيامَةِ لَـأَحتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَـهُ إِلّـا قَليلًا** ".

[1] تفسير الكشاف ٥٦١

والأمر في (انظرني) من الأدنى للأعلى ، خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى الرجاء ، لذا شفعه في سورتي الحجر و (ص) بلفظ الربوبية:" **قالَ رَبِّ فَأَنظِرني**" وكأنه يستعطف خالقه ؛ ليبلغ مراده ، ويحقق رجاءه من الإنظار إلى يوم البعث ؛ ليتمكن من تحقيق غرضه المنشود .

وحرف الجر (إلى) في قوله :" **إِلى يَومِ يُبعَثونَ** " لانتهاء الغاية[1] ، وإنما جعل غاية الإنظار إلى يوم البعث ؛ لأنه لا موت في يوم البعث ولا بعده ، وغرضه من تحديد ذلك اليوم أن يُكتب له الخلود فلا تُقبض روحه، بل يظل ليوم البعث حيا تتصل حياته بما بعد البعث .

قال الإمام الشوكاني في تفسير هذه الآيات : " إنما طلب إبليس الإنظار إلى يوم البعث ليتخلص من الموت لأنه إذا أنظر إلى يوم البعث لم يمت قبل البعث ، وعند مجيء البعث لا يموت ؛ فحينئذ يتخلص من الموت ، فأجيب بما يبطل مراده وينقض عليه مقصده ، وهو الإنظار إلى يوم الوقت المعلوم وهو الذى يعلمه الله ولا يعلمه غيره[2]"

والفاء في قوله :" **قالَ رَبِّ فَأَنظِرني إِلى يَومِ يُبعَثونَ** " للسببية ، اقترنت بالفعل في (انظرني) في سورتي الحجر و (ص) خاصة ، وذلك لأنه في هاتين السورتين شدد له العقاب ، فلم يقتصر المولى – جل علاه – في عقابه لإبليس على خروجه منها كما في سورة الأعراف حتى جعله في هاتين السورتين (رجيم) ؛ أي مطرود من رحمته ، وملعون إلى يوم الدين ، فلما شدد له العقاب بدأ إبليس يستعطف في حواره قائلا :"

---

[1] ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المرادي – تحقيق : فخر الدين قباوة – محمد نديم فاضل ٣٨٥ ط١ دار الكتب العلمية ببيروت ١٤١٣هـ ١٩٩٢م

[2] فتح القدير: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني دار ابن كثير ٤٤٦/٤ ط١دمشق، بيروت١٤١٤ هـ

رَب فَأَنْظِرنِي " ، فذكر لفظ الربوبية ، وشفع فعل الأمر بالفاء ؛ أي إذا كان منك ربي ذاك العقاب ؛ فامنحني فيضا منك وأجب دعوتي في الإنظار ، فالفاء هنا للسببية يبدو فيها شيء من الاستعطاف مع التذلل بلفظ الربوبية ؛ حتى يُجاب طلبه ، فإذا أجيب عاد إلى ديدنه من الطغيان والنفور .

ونكّر لفظة (يوم) ؛ للجهل به ، فلا علم لأحد بموعده سوى الله – عز وجل – وعبّر بالمضارع مقترنا بواو الجماعة ، فقال : " يبعثون " دون (يوم البعث) ؛ ليوضح مغزاه من الطلب ، وغرضه الكامن بنفسه؛ وهو إغواء بني آدم أولئك المعبر عنهم بواو الجماعة وهم البشر بنو آدم.

وهنا يجيبه المولى – جل شأنه – قائلا :" **فإنك من المنظرين** " مؤكدا القول بـ(إن) ، وكأنه قد قُدر قبل طلبه أنه من المنظرين ، فلم تكن إجابة طلبه تكريما له ، ولكنها تحصيل حاصل قد قدره الله – عز وجل-.

يقال :" إن في ورود الجواب جملة اسمية مع التعرض لشمول ما سأله الآخرين على وجه يؤذن بكون السائل تبعا لهم في ذلك دليل على أنه إخبار بالإنظار المقدر لهم ، لا لإنشاء إنظار خاص به وقع إجابة لدعائه ، أي أنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين[1]"

[1] تفسير روح المعاني ٤٨/١٤

ومعنى " **يوم الوقت المعلوم** " :" الوقت الذي تقع فيه النفخة الأولى ... ومعنى " المعلوم " : أنه معلوم عند الله معين لا يستقدم ولا يستأخر.[1] "

قال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية : " قال ابن عباس : أراد به النفخة الأولى أي حين تموت الخلائق ، وقيل : الوقت المعلوم الذي استأثر الله بعلمه ويجهله إبليس فيموت إبليس ثم يُبعَث ؛ قال الله تعالى : (كل من عليها فان)[2]" ، وروى الطبري في تفسيره عن السُدِّي : " فلم يُنْظِرهُ إلى يوم البعث ولكن أنظره إلى يوم الوقت المعلوم ، وهو يوم ينفخ في الصور النفخة الأولى فصعق من في السموات ومن في الأرض فمات[3] ".

وعلى هذا لم يحقق المولى – جل شأنه – لإبليس جل أمنيته من البقاء إلى يوم البعث ، ولكنه أنظره إلى الوقت المعلوم الذي تقع فيه النفخة الأولى.

وإنما أجيب إلى استنظاره مع إفساده العباد وإغوائهم " لما في ذلك من ابتلاء العباد ، وفي مخالفته من أعظم الثواب ، فحكمه حكم ما خلق في

---

[1] تفسير الكشاف ٩٣٢

[2] الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): أَبُو عَبْدِ اللّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أبي بكر القرطبي -تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ٢٧/١٠ ط٢دار الكتب المصرية – القاهرة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م .

[3] جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بـ" تفسير الطبري "للإمام محمد بن جرير الطبري- تحقيق :د/عبد الله بن عبد المحسن التركي١٣٢/٨ ط١ دار هجر للطباعة والنشر١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

الدنيا من صنوف الزخارف ، وأنواع الملاذ والملاهي ، وما ركب في الأنفس من الشهوات ؛ ليمتحن بها عباده.[1] "

أما عن حديث إبليس في سورة الإسراء مقارنة بالسور الأخرى أجد لهجته تختلف حيث يظهر حقده الدفين بنبرة أعلى ، ويعلن صراحة عن سبب امتناعه عن السجود ابتداء منه دون أن يرد فيها سؤال من المولى – جل علاه – عن العلة ، يقول تعالى :" **فَسَجَدوا إِلّا إِبليسَ قالَ أَأَسجُدُ لِمَن خَلَقتَ طينًا** " ، وعن طلبه الإنظار يقول المولى على لسانه :" قالَ **أَرَأَيتَكَ هـذَا الَّذي كَرَّمتَ عَلَيَّ لَئِن أَخَّرتَنِ إِلى يَومِ القِيامَةِ لَأَحتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلّا قَليلًا** "

فقوله :" **أَرَأَيتَكَ هـذَا الَّذي كَرَّمتَ عَلَيَّ** " استفهام إنكاري تجاوز فيه إبليس الحد ، وأظنه أعلى نبرة استفهام إنكاري ورد على لسان إبليس ، اختلط فيه الإنكار بوقاحته واستكباره وطغيانه ؛ إذ ينكر على الله تعالى فعله من تكريم آدم ، ويتحداه بصورة عارية غاية في القبح قائلا :" **لَئِن أَخَّرتَنِ إِلى يَومِ القِيامَةِ لَأَحتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلّا قَليلًا** " أي انظر إلى هذا الذي كرمت علي لأفعلن به وذريته كذا وكذا ، والرؤية هنا لا يشترط فيها الرؤية البصرية ، ولكنها تدور حول كل ما يتعلق بتكريم الله لآدم وأمره بالسجود له نظرة شمولية وكأنه يقول للمولى – جل ثناه - : انظر إلى كل ما قدرت في حق آدم وحقي فأنا اتحداك فيه أن أفعل كذا وكذا .

وأشار بـ(هذا) للقريب ؛ للتحقير ؛ ليقلل من شأن آدم – عليه السلام – ؛ استكمالا لإنكاره على الله تلك المنزلة الرفيعة التي منحها لآدم – عليه السلام – .

[1] تفسير الكشاف ٣٥٧

وللسبب ذاته استخدم الموصول (الذي) ؛ ليزري بآدم – عليه السلام – ويقلل من شأنه ، **وتبدو قيمة استخدام الموصول** هنا في أنه لا يتوصل إلى وصف المعارف بالجمل إلا من خلاله ؛ لما هو متعارف عليه من أن الجمل بعد المعارف أحوال لا صفات ، وفي ذلك يقول الإمام عبد القاهر - رحمه الله – (إنما اجتُلِب حتى إذا كان قد عُرِف رجل بقصة وأمر جرى له ، فتخصص بتلك القصة وبذلك الأمر عند السامع ، ثم أريد القصد إليه ذُكِر "الّذي") [1].

بمعنى : هذا الذي نعرفه ، واختلفت في أمر السجود له هو ذاته الذي كرمت عليّ لأفعلن به ما اشتهي .

وعبّر بالماضي في (كرمت) ؛ ليفيد تحقق وقوع التكريم من الله – عز وجل – لآدم عليه السلام ، وهو التكريم الذي نغص على إبليس كيانه وزلزله غيرة وحقدا .

واستخدم الحرف (على) وأضافه لنفسه فقال :" **كرمتّ عليّ** " ؛ ليظهر كم الحقد الدفين الكامن في قلبه ؛ إذ أعلى الله شأن آدم عليه ، وظهر ذلك في صيغة تبرز إعجاز القرآن الكريم بنظمه ؛ حيث توالت الألفاظ بحيث وضعت كل لفظة موضعها مترابطة مع سابقها ولاحقها قائلا :" **أَرَأَيتَكَ هـذَا الّذي كَرّمتَ عَلَيّ** " بنظم رسم صورة معبرة عن لهيب النار المتأججة التي تأكل قلب إبليس وعقله ، وتجول بشتى كيانه حرقة وألما من تكريم آدم عليه .

[1] تفسير الكشاف ص٢٠٠

واللام في (لئن أخرتني) موطئة للقسم[1] .

وهنا تلعب خصائص التراكيب دورها في بيان كم الحقد الكامن في كيان إبليس ، والذي تنفسه فبرز واضحا في عدد من المؤكدات التي تدعم التحدي والإصرار الوقح على الطغيان من قبل إبليس ، فتجد المولى – جل شأنه – يعبر على لسان إبليس بالشرط المؤكد بالقسم المدعم بالام (لئن) الداخل على الفعل الماضي المفيد التحقيق (أخرتني) ، وبلام الجواب ونون التوكيد (لاحتنكن) ، فهو تحد صارم من حقير الشأن إلى رب الخلق أجمعين .

واستخدامه المضارع في جواب الشرط (لاحتنكن) يدل على تبييت النية في تكرار ذلك الفعل واستمرار التكرار إلى يوم ينتهي فيه الخلق ، فالتكرار النابع من المضارع يدل على التتبع لآدم وذريته ما دامت الحياة على الأرض .

وذُكر للـ(الاحتناك) معنى الإضلال[2] ؛ وبذلك يكون المعنى على حقيقته بمعنى : لأضلن ذريته إلا قليلا ، وذُكِر في المعجم معنى آخر وهو أن أصل (احتنك) : جعل في حنك الدابة الأسفل حبلا يقودها به[3] ، فيكون المعنى على المجاز لا الحقيقة ؛ بحيث استعار احتناك الدابة للاستيلاء على ذرية آدم وإضلالهم بتبعية الإغواء على طريق الاستعارة التصريحية التبعية .

---

[1] اللام الموطئة هي الداخلة على أداة الشرط ، فإن كان القسم مذكورا لم تلزم ، وإن كان محذوفا لزمت غالبا ... سميت موطئة ؛ لأنها وطئت للجواب ، وأكثر ما تكون مع (إن) الشرطية " الجنى الداني ص١٣٧

[2] ينظر : تفسير ابن كثير ٩٣/٥

[3] ينظر : اللسان مادة (حنك).

والاستعارة أولى بالمعنى من الحقيقة ؛ إذ تصور الإنسان في نظر إبليس بصورة مزرية كالبهيمة يجرها حيث يريد ؛ مما يبرز ما كمن في نفس إبليس من حقد وحسد لآدم ، ويؤكد على قطعه الوعد بالتربص له ولذريته ، ومما يؤكد على هذا المعنى الذي يصور الاتباع والانقياد الأعمى رد المولى عليه ؛ حيث قال :" **اذهَب فَمَن تَبِعَكَ مِنهُم فَإِنّ جَهَنّمَ جَزاؤُكُم جَزاءً مَوفورًا** " ، فالتبعية في قوله :" فمن تبعك " تؤكد على ذات المعنى الذي ترمي إليه الاستعارة ، وهو انقياد البهائم ؛ حيث تكون فيه تابعة لقائدها مسلوبة الإرادة ، وذاك ما تقرره الاستعارة وترمي إليه .

وسر بلاغة الاستعارة يكمن في ذلك التصوير الحسي المشاهد الذي نقل من خلاله المعنى المجرد إلى صورة مرئية واضحة ؛ ليمكنها من الأذهان ، هذا ومن جانب آخر فإنها تبرز مدى كراهية إبليس لبني آدم ، وتوضح جهده المبذول في إغوائهم ، فهو لايمل من سعيه بل يلتمس شتى السبل ؛ حتى يميلوا للشهوات ، فإذا انغمسوا فيها احتنكهم وقادهم قود البهائم ، فهو تعبير يوضح بالغ التمكن ، هذا إلى جانب استخدامه صيغة (افتعل) في (احتنك) التي تناسب التربص والترقب والعمل الدؤوب للوصول إلى الهدف المنشود .

ولما شعر إبليس أن ليس له سلطان على بني آدم أجمعين استثنى من احتناك الكل فقال :" **إلا قليلا** " ؛ لشعوره أنه مهما علت مهارته في الإغواء سيصعب عليه بعضهم ، ولذا أتى على لسانه في سورة الأعراف ما يؤكد المعنى وهو قوله :" **قالَ فَبِما أَغوَيتَني لَأَقعُدَنّ لَهُم صِراطَكَ المُستَقيمَ ثُمّ لَآتِيَنّهُم مِن بَينِ أَيديهِم وَمِن خَلفِهِم وَعَن أَيمانِهِم وَعَن شَمائِلِهِم وَلا تَجِدُ أَكثَرَهُم شاكِرينَ** " .

والفاء في قوله :" فبما أغويتني " للسببية ، والباء " تعلقت بفعل القسم المحذوف تقديره (فبما أغويتني أقسم بالله لأقعدن) ؛ أي فبسبب إغوائك أقسم ، ويجوز أن تكون الباء للقسم ؛ أي فأقسم بإغوائك لأقعدن ، وإنما أقسم بالإغواء ؛ لأنه كان تكليفا ، والتكليف من أحسن أفعال الله ؛ لكونه تعريضا لسعادة الأبد فكان جديرا أن يقسم به [1]" ، يقول الزمخشري عن معنى إغوائه :" تكليفه إياه ما وقع به في الغي ، ولم يثبت كما ثبتت الملائكة مع كونهم أفضل منه ، والمعنى بسبب وقوعي في الغي لاجتهدن في إغوائهم ؛ حتى يفسدوا بسببي كما فسدت بسببهم.[2] "

واستخدم الماضي في (أغويتني) ؛ ليحقق وقوع الغواية ، وأكد الجملة بالقسم ؛ لينفث عما في نفسه من الغضب العارم الذي جعله يؤكد على تربصه بهم .

واستخدم الموصول (ما) في (فبما أغويتني) ؛ ليعظم من شأن ما وقع به الإغواء ، فعظيم على نفس إبليس أن يسجد لآدم – عليه السلام - مخلوق الطين وقد خُلق هو من النار ، فلما عَظُم ذلك على نفسه عَظّم أمر الغواية .

والصراط المستقيم دين الإسلام فهي استعارة أصلية ، وبلاغتها تكمن في اعتراف إبليس بأن دين الله هو الدين الحق ؛ ليوضح الذكر الحكيم لكل مكابر معاند أن إبليس عدوهم اللدود يضلهم حسدا وحقدا عن علم بالحق ، ولكن غلب استكباره علمه ، وقوله :" **لَأَقْعُدَنَّ لَهُم صِراطَكَ المُستَقيمَ**"

---

[1] تفسير الكشاف ص ٣٥٨

[2] السابق ص ٣٥٨

كناية عن الملازمة مع التربص التام ، ولذا استخدم حرف اللام في (لهم) ؛ ليؤكد على تخلية نفسه من كل ما يشغله إلا القعود لبني آدم مما يدل على الاستعداد التام وعلى خصوصيتهم بالتربص دون سائر الخلق، فقد خصّ بني آدم بالغواية وأقسم متوعدا متربصا بهم السبل ، وفيه بالغ الدلالة على الكراهية المطلقة التي لا حدود لها ولا رجعة فيها ، والقول هنا مؤيد ومدعم لقوله تعالى في سورة الإسراء :" **لأحتنكن ذريته** " ؛ إذ القعود للغواية يترتب عليه استجابة بعضهم وانخراطهم في سلك المعصية تابعين للشيطان ؛ حتى يحتنكهم احتناكا .

وخصّ القعود للصراط المستقيم ، فقال :" **لَأَقعُدَنّ لَهُم صِراطَكَ المُستَقيمَ** " ؛ ليكرث مزيدا من الإغواء للصالحين المستمسكين بالصراط المستقيم ، فإبليس ربما لا يتربص التربص الأمثل بالغاوين كشاربي الخمر والزناة والسارقين بقدر ما يتربص بالصائمين والقائمين ؛ لأن الغاوين من اليُسر احتناكهم ، ولكن أولئك الصالحون يتطلب أمر غوايتهم المزيد من القعود والتربص ، والإتيان عن اليمين والشمال، والالتزام التام لهم ؛ حتى يستميلهم نحوه ويجعلهم كغيرهم من الضالين.

وعطف بـ(ثم) فقال :" **ثم لآتينهم** " وهي للتراخي ؛ ليوضح عدم يأسه من أتقياء بني آدم ولو مع تمسكهم بصراط الله المستقيم ، فسوف يظل لهم قاعدا متربصا يلتمس لهم الذلل ولو بعد حين ، وكذا مع التائبين يظل مترقبا حتى يعودوا للذلل ، هذا فضلا عن عصاة المسلمين فهؤلاء يتلاعب بهم إلى أن يشاء الله لهم الاستقامة .

والأصل أن يقال : جلس على يمينه وعلى شماله ، ولكنه عدى بـ (عن) فقال :" **عَن أَيمانِهِم وَعَن شَمائِلِهِم** " ، وذلك لأن من معاني (عن) الاستعلاء ، فتكون متضمنة معنى (على)[1] ، وقيل : " معنى (على يمينه) أنه تمكن من جهة اليمين تمكن المستعلي من المستعلي عليه ، ومعنى (عن يمينه) أنه جلس متجافيا عن صاحب اليمين منحرفا عنه غير ملاصق له ثم كثر حتى استعمل في المتجافي[2] ." أي أن إتيان إبليس لهم عن اليمين والشمال عن جفاء ورغبة في الانتقام ، وهو أنسب لحال إبليس .

وذكر الجهات الأربع الواردة في الآية عن اليمين والشمال وبين أيديهم ومن خلفهم ورد على سبيل الاستعارة التمثيلية ؛ حيث استعار التربص للعدو بالإتيان من تلك الجهات ؛ ليبين التزامه الإغواء بكل سبيل كان ، مما يوضح حرصه الشديد على الإيقاع بهم .

واستخدم حرف النفي (لا) دون (لن) وهما لنفي المستقبل في قوله تعالى :" **وَلا تَجِدُ أَكثَرَهُم شاكِرينَ** "؛ لأن (لن) تنفي المستقبل مع التأكيد[3] ، والتأكيد لا ينطبق مع ظن إبليس ، فظنه أن أكثرهم لا

---

[1] وذلك كقول الشاعر : لاه ابنُ عمكَ ، لا أفضلتَ في حَسَبٍ عنّي ولا أنت ديّاني فتخزوني أي : (عليّ) ، قال ابن مالك : ومنه : (بخل عنه) والأصل (عليه) "/ الجنى الداني ص٢٤٦

[2] تفسير الكشاف ص٣٥٨

[3] " (لا) و (لن) أختان في نفي المستقبل إلا إن في (لن) تأكيدا " مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي) :أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي – حققه : يوسف علي بديوي ١ /٢٦ ط١ دار الكلم الطيب، بيروت ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م – " (لن) موضوعة لنفي المستقبل وهي أبلغ في نفيه من (لا) "/شرح المفصل للزمخشري يعيش بن علي المعروف بابن يعيش ١١١/٨ ط١ دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م – ويعلل الدكتور إبراهيم أنيس خاصية التوكيد في (لن) بأنها مركبة من(لا) و(أن)،

يشكرون ، ولكنه لا يستطيع أن يؤكد على ذلك ، والذي يؤكد على أن قوله هذا ظن لا تحقيق قول الله تعالى :" **ولقد صدّق عليهم إبليسُ ظنّه فاتبعوه إلا فَريقًا مِن المؤمنين** [1]" فالأمر على الظن من إبليس لا اليقين .

ونفي الشكر عن الأكثرية في سورة الأعراف يطابق ما ورد في بداية السورة وقبل ذكر القصة ، وهو قوله تعالى :" **وَلقد مَكنّاكُم فِي الأرضِ وجَعلْنَا لكُم فِيها مَعايشَ قَليلا مَا تَشكُرُون** " وكأنه تعالى شأنه يمهد بذكر أقلية الشاكرين لذكر قصة آدم ومعصية إبليس ؛ ليُحذّر من إغوائه ، وهو مطابق أيضا للاستثناء الوارد في سورة الإسراء في قوله تعالى :" **لأحتنكن ذريته إلا قليلا** " .

وعن علمه أن من بني آدم من يستجيب له وهو من الغيب قيل :" إما أنه سمعه من الملائكة وقد أخبرهم الله به، أو خرّجه من قوله:" **أتجعلُ فِيها مَنْ يُفسِدُ فِيهَا**" ، أو نظر إليه فتوسم في مخايله أنه خلق شهواني[2] ."

وفي سورتي الحجر و (ص) أقسم إبليس على إغوائهم أيضا ، قال تعالى في سورة الحجر :"**قالَ رَبِّ بِما أَغوَيتَني لَأُزَيِّنَنّ لَهُم فِي الأَرضِ وَلَأُغوِيَنَّهُم أَجمَعينَ إِلّا عِبادَكَ مِنهُمُ المُخلَصينَ** " وفي (ص) :" **قَالَ فَبِعِزّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** " حيث أكد بالقسم ، وبنون التوكيد اللاحقة للأفعال (أزينن وأغوين) ؛ مما يوضح

وهكذا عنده كل الأدوات المركبة يقول :" الاستعمال اللغوي قد فرق بين الأدوات المركبة ؛ فاختصت كل منها بناحية تنظيمية خاصة ... على أن كل أدوات النفي المركبة برغم تلك الخصائص في الاستعمال تشترك جميعا في أنها تنفي نفيا مؤكدا " / من أسرار اللغة د/ إبراهيم أنيس ص١١٣

[1] سورة سبأ آية ٢٠

[2] تفسير الكشاف ص٦٠١

إصراره على فعل ما أقسم عليه وما توعد به ، وبعدما أكد على الغواية استثنى المخلصين ؛ وذلك لأن أمر غوايته على الظن لا على اليقين ولذا يقول الله تعالى :" **إنّ عِبادِي ليس لَك عَلَيهم سُلطَان** " فإبليس يجتهد في الإغواء ويطرق شتى السبل ؛ لتحقيق ظنه وليس له سلطان يقين لتحقيقه إلا ما شاء الله .

• ختام الحوار

هنا يحاوره الله – عز وجل – خاتما القصة بختام يضع إبليس في مأزق لا خلاص منه يقول تعالى في سورة الحجر :" **قالَ هـذا صِراطٌ عَلَيّ مُستَقيمٌ** " وهو قول يحمل من القوة ما يعلو تأكيد إبليس وقسمه على الإغواء ، فقال المولى :" **هذا صراط** " أي طريق الحق، وعبّر عنه بـ(هذا) للقريب ؛ لقربه من الله ، ويسر إدراكه لمن اعتصم بالله .

وقوله : (**عليّ مستقيم**) " أي طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى وإليه تنتهي كما قال : **وَعَلى الله قَصْد السّبِيلِ** "[1]

واستخدامه حرف (على) لا يعني أن طريق الحق تعلو على الله – عز وجل- ، فلا استعلاء لشيء على الله -تعالى عن ذلك علوا كبيرا - ، وإنما تعني أن الحق مرجعه إلى الله ينتهي إليه ، ويهيأه لعباده الصالحين لمن تمسك بأسبابه واتبع سبيله ، وعلى هذا يكون قد استعار[2] لفظة (على)

---

[1] تفسير ابن كثير ٤/٥٣٥

[2] الاستعارة على مذهب أهل السنة ، أما المعتزلة فيرون أن لفظ (على) يقتضي الوجوب ، وأنها على حقيقتها في الآية ؛ لأن الله يجب عليه فعل الأصلح للعباد / ينظر : تفسير روح المعاني ١٤/٥٠

التي تقتضي الوجوب ، للتفضل منه – سبحانه وتعالى – فقد تفضل على المؤمنين بإرشادهم للصراط المستقيم .

وسر بلاغة الاستعارة تكمن في بيان التأكيد على هداية الله لعباده الصالحين وحفظهم من كل شيطان رجيم ، ولذا قال تعالى :"**إنّ عِبَادي لَيسَ لَكَ عليهم سُلْطَان**".

" وإيثار حرف الاستعلاء على حرف الانتهاء ؛ لتأكيد الاستقامة والشهادة باستعلاء من ثبت عليه، فهو أدل على التمكن من الوصول[1] "

وقوله تعالى :" **هذا صراط عليّ مستقيم** " خبر ابتدائي صدر من المولى يحمل من القوة ما يغنيه عن مؤكدات اللفظ ، فإبليس يعلم أنه يتحاور مع خالقه الذي أقسم بعزته ليغوينهم ، وما أقسم بعزة الله إلا لعلمه بشأن المولى ، فألقى له المولى القول عاريا عن التأكيد ؛ ليزلزل كيانه بأولى درجات الخبر ، ثم أكد له قوله تعالى :" **إنّ عِبادي لَيسَ لَكَ عَلَيهِم سُلطانٌ إلّا مَنِ اتّبَعَكَ مِنَ الغاوينَ** " ؛ ليصفعه الصفعة الثانية ، فبعد أن وضح له أن طريق الحق طريق الله تعالى ، وهو كفيل به ، صفعه صفعة أخرى مؤكدا أن عباد الله لا سلطان لإبليس عليهم ، فقال :" **عبادي** " مضيفا لفظة (العباد) إلى ذاته الكريمة ، وفيه من التكريم قدر كبير ؛ حيث خصهم بالانتماء إليه .

واختص لفظة (سلطان) ؛ لأنها القوة والقهر ، فنفى أقصى سيطرة يحتمل وقوعها من إبليس بقوله :" **لَيسَ لَكَ عَليهم سُلْطَان** " ، ثم استثنى من أولئك المكرمين بعض الغاوين ، واختص لفظ (الغاوين) دون

[1] السابق ١٤/٥١

المضلين أو غيره من الألفاظ ؛ لأن الغاوي هو الممعن في الضلال المنغمس فيه.

واستخدم (من) للتبعيض ، فقال :" من الغاوين " ؛ حتى لا يستغرق جنس الغاوين أجمعين ، فلربما يتوب بعضهم ، ولذا بعّض جنس الغاوين بـ(من) ؛ ليبين له أن ليس من نصيبه كل الغاوين الضالين بل بعضهم فقط ، وهؤلاء لهم عقاب عند الله عبّر عنه بقوله :" وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوعِدُهُم أَجمَعِينَ " مؤكدا القول بـ(إن) واللام ؛ ليخلع نفوس الضالين المتبعين لخطوات الشيطان ، وأتبع تأكيد المفردات التأكيد بـ(أجمعين)؛ ليستغرق جنس الغاوين الذين اتبعوا إبليس ولم يتوبوا ، وهم البعض المعبر عنهم بقوله :" **مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوِينَ** " .

وفي جعل جهنم موعدا لهم استعارة تهكمية ؛ حيث جعلهم على ميعاد معها .

ويبدو سرها البلاغي في بيان هول ما أعده الله لهم في محل ميعادهم؛ إذ إن صاحب الموعد يهيأ لميعاده بقدر حفاوته لمن يواعده ، وهذه جهنم موعدهم أعدها الله لهم إثر استكبارهم وطغيانهم ، فأعد لهم فيها ما يخلع القلوب لمجرد تخيله ، فما حالهم وقد أصبحت دارا لهم – أعاذنا الله تعالى -.

ونظير ذاك الوعيد في سورة (ص) قوله تعالى :" **قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**"

الحق: مقسم به "والمراد بالحق إما اسمه – عز وعلا – الذي في قوله :" إن الله هو الحق المبين" ، أو الحق الذي هو نقيض الباطل عظّمه الله بإقسامه به محذوف الخبر أي فالحق قسمي[1] ".

وقوله :" والحق أقول " جملة اعتراضية غرضها التأكيد أي : لا أقول إلا الحق ، وفيها من زرع الرهبة في قلب المخاطب ما لا يخفى حيث وردت في مقام التهديد .

(لأملأن) اللام واقعة في جواب القسم ، والفعل مؤكد بنون التوكيد ؛ لمزيد من الترهيب لإبليس وأتباعه ، واستخدم فيه الفعل المضارع ؛ ليفيد تكرار الوقوع مما يجعل من ملء جهنم بالعاصين أمرا متكررا مصداقا لقوله تعالى :" **يَومَ نقُول لجهنّم هَل امتلأت وَتقُولُ هَل مِن مَزِيد**" فهي دار للعاصين واسع الرحاب لا يضيق بنازليه بل يتسع للمزيد منهم – أعاذنا الله منها - .

واستخدم (من) في قوله :" **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ** " وهو فرد واحد ؛ لأنه أول جنسه كما كان آدم – عليه السلام – أول جنس البشر ، يعني ممن تبعك من أبناء جنسك من الشياطين العاصين ، "**وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**" أي وممن تبعك من بني البشر ، فجهنم للعاصين من الجن والإنس أجمعين، وقوله :"أجمعين" تأكيد للضمير في (منك) و(منهم) ؛ أي لجميع العاصين من الجنسين.

[1] تفسير الكشاف ص٩٣٢

ونظير ذاك العقاب في سورة الأعراف قوله تعالى :" **قالَ اخرُج مِنها مَذءومًا مَدحورًا لَمَن تَبِعَكَ مِنهُم لَأَملَأَنّ جَهَنّمَ مِنكُم أَجمَعينَ** "

فقوله :" اخرج منها " أمر ورد على حقيقته يقتضي وجوب التنفيذ، به طرد وإبعاد من رحمة الله ، وقوله :" مذؤما " أي : معيبا حقيرا[1]، و" مدحورا " أي : مطرودا[2] ، أي : اخرج منها حال كونك معيبا مذموما ، حقيرا مطرودا .

واللام في قوله :" لمن تبعك " موطئة للقسم ، واللام في " لأملأن " واقعة في جواب القسم ، والتأكيد بالقسم يناسب لهجة الحوار التي نَحَتْ من لطف الحوار في بداية القصة إلى شدته في ختامها ؛ حيث العصيان المطلق من إبليس والتحدي الصارم الذي جاوز كل الحدود .

وقال "(منكم) في قوله تعالى :" **لَمَن تَبِعَكَ مِنهُم لَأَملَأَنّ جَهَنّمَ مِنكُم أَجمَعينَ** " ، فغلّب ضمير المخاطبين ، والأصل (منهم) .

وسره البلاغي يظهر في بيان انتساب الغاوين إلى إبليس بحيث يصيرون منه وكأنهم من جنسه ، فقال :" منكم " .

وعن تقديم (من تبعه) على (ملء جهنم) في سورة الأعراف :" **لَمَن تَبِعَكَ مِنهُم لَأَملَأَنّ جَهَنّمَ مِنكُم أَجمَعينَ** "، وتأخيرها في سورة (ص): "**لَأَمْلَأَنّ جَهَنّمَ مِنكَ وَمِمّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**" يقول الدكتور السامرائي :

" لما تقدم الكلام على جهنم قدم ما يتعلق بها وهو ملء جهنم ، وأما في سورة الأعراف فقد تأخر ذكر جهنم وعذابها عن هذه القصة ، فلما

[1] ينظر : مختار الصحاح مادة (ذأم)

[2] السابق مادة (دحر)

تأخر ذكر جهنم أخر ما يتعلق بها في القصة هذا أمر ، والأمر الآخر أنه تقدم على القصة في الأعراف ذكر من تبع إبليس ممن أهلكهم الله من أهل القرى فقال : " **وَكَم مِن قَريةٍ أَهلكْناهَا فَجَاءها بَأسنا بَياتًا أو هُم قَائلون فمَا كانَ دَعْوَاهم إذ جَاءهم بَأسنا إلا أَن قَالوا إنا كُنا ظَالِمين** " ، وتقدمها عتاب ربنا لأهل الأرض لقلة شكرهم ، فقال :" ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون " فكأنه صدق إبليس عليهم ظنه فاتبعوه حين قال في قصة آدم في هذه السورة :" ولا تجد أكثرهم شاكرين " فناسب تقديم (من اتبعوه) في سورة الأعراف من هذه الناحية أيضا ، هذا بالإضافة إلى أن إبليس ذكر ما سيحتال لذرية آدم ليتبعوه أكثر مما ذكره في (ص)، فقد قال:" لأقعدن لهم صراطك المستقيم " ، " ثم لآتينهم من بين أيديهم " ، " ومن خلفهم " ، " وعن أيمانهم " ، "وعن شمائلهم " ، " ولا تجد أكثرهم شاكرين "، في حين قال في (ص) " لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين " ، فلما أفاض فيما سيفعله ويحتال لذرية آدم في الأعراف ليتبعوه ناسب أن يقدم (من تبعه) من هذه الذرية بخلاف ما في (ص) التي لم تكن فيها مثل هذه المناسبة ؛ فناسب كل تعبير مكانه من كل وجه.[1] "

أما نظير ذلك العقاب في سورة الإسراء فأتى مفصلا ؛ ليطابق النحو الذي نحاه إبليس في وعيده ؛ حيث النبرة العالية الكامنة في الشرط والتي ينبع منها تهديد ووعيد من حقير الشأن تجاوز طغيانه الحد حيث يقول :" **أَرَأَيتَكَ هـذَا الّذي كَرّمتَ عَلَيّ لَئِن أَخّرتَنِ إِلـى يَـومِ القِيامَـةِ لَـأَحتَنِكَنّ**

[1] لمسات بيانية في نصوص من التنزيل د/ فاضل السامرائي ص ٦٩-٧٠ ط٣ دار عمار ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م

ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا " ، فرد عليه المولى- جل شأنه – برد تفصيلي يناسب ذلك التجاوز قائلا :" **قالَ اذهَب فَمَن تَبِعَكَ مِنهُم فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُم جَزاءً مَوفوراً وَاستَفزِز مَنِ استَطَعتَ مِنهُم بِصَوتِكَ وَأَجلِب عَلَيهِم بِخَيلِكَ وَرَجِلِكَ وَشارِكهُم فِي الأَموالِ وَالأَولادِ وَعِدهُم وَما يَعِدُهُمُ الشَّيطانُ إِلّا غُروراً إِنَّ عِبادي لَيسَ لَكَ عَلَيهِم سُلطانٌ وَكَفى بِرَبِّكَ وَكيلًا "**

فقوله :" اذهب " أمر خرج عن حقيقته إلى الإمهال الممتزج بالتهديد والوعيد ، أي لك الإنظار مع العقاب ، وغلّب ضمير المخاطبين فقال :" جَهَنَّمَ جَزاؤُكُم " ، أو هي على الالتفات ؛ حيث التفت من ضمير الغائب " فَمَن تَبِعَكَ مِنهُم " إلى ضمير المخاطب " فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُم" ، ولو سار على الأصل لقال : (جزاؤهم) وإنما وقع الالتفات ؛ ليغلب ضمير المخاطب ليجعلهم بإطاعتهم إبليس وعصيانهم لله وكأنهم صاروا جزءا لا يتجزأ من كيان إبليس ، وكأنهم انتقلوا من جنس البشرية إلى جنس الشياطين ، فصاروا وإبليس جنسا واحدا فقال :" منكم " .

ثم لما زاد إبليس في الوعيد والسخرية من بني آدم فقال :" لَأَحتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ " زاد له المولى في تفصيل الرد عن باقي السور فقال :" **وَاستَفزِز مَنِ استَطَعتَ مِنهُم بِصَوتِكَ وَأَجلِب عَلَيهِم بِخَيلِكَ وَرَجِلِكَ وَشارِكهُم فِي الأَموالِ وَالأَولادِ وَعِدهُم وَما يَعِدُهُمُ الشَّيطانُ إِلّا غُروراً "** .

وأفعال الأمر المذكورة في الآية الكريمة (استفزز – أجلب[1] - شارك – عد) خرجت عن معناها الحقيقي إلى التهديد والوعيد ، كما تقول لولدك : (خالفني فيما أمرتك به) ؛ تهديدا ووعيدا ، وإنما فصل

[1] استفزه الخوف : استخفه ، وقعد مستفزا : أي غير مطمئن / اللسان مادة (فزز)
جلب على فرسه : صاح من خلفه واستحثه / السابق مادة (جلب)

تلك الأفعال ؛ ليوضح للبشر أجمعين طرق إبليس في الغواية ؛ ليأخذوا حذرهم ، هذا ومن جانب ثان ؛ ليكشف في وجه إبليس كل سبيل خفي نوى أن يسلكه خفية ليضلل بني آدم ، فكشف الله سره وهتك ستره ، وفضح خباياه ونواياه ، هذا ومن جانب ثالث ؛ ليحقر أفعاله ويصغرها مهما علا شأنها في نظره ، فكل شراكه ومصائده هي عند الله لا تساوي شيئا ، وكأنه يقول له : غايتك في الإغواء فعل كذا وكذا ، فافعل لا يضيرنا شيء من تدابيرك .

وعبّر بالموصول (من) في قوله :" وَاستَفزِز مَنِ استَطَعتَ " ؛ ليفخم في عدد المستفزَزين بفعل إبليس موضحا أنه مهما أغويت أو فعلت ما تتوعد به لا يضيرنا شيء ولا عباد الله المتقين ، فالتفخيم مع الاستهزاء بفعله ينقل له رسالة فحواها : افعل أكثر ما يمكنك فعله لن يضيرنا ، ولن تلقى غير الخذلان والتخلية من رحمة الله ونصرته .

وبالآية استعارة تمثيلية ؛ حيث استعار هيئة من هجم على قوم يستفزهم بتصويته ، ويجلب عليهم بخيله تارة ، وبجنوده الراجلة تارة أخرى ؛ ليزلزلهم عن مواقعهم ويأسرهم ، لهيئة إبليس في غوايته ، وترصده لبني آدم كل مسلك ؛ ليوقعهم في فتنته .

وسر بلاغة الاستعارة يكمن في نقل المعنى المجرد إلى المشهد التصويري ، فجعل بني آدم وإبليس في ساحة قتال ، يمتلك فيها إبليس كل أسلحة الحرب من خيل وجنود راكبة وراجلة ، وقدرة على التصويت المفزع والإخافة ، وفي المقابل بنو آدم لا سلاح لهم سوى التقوى والاعتصام بحبل الله ، ولكنه السلاح الأقوى لمن استمسك به ، السلاح الذي تخور أمامه قوى إبليس كلها ، ويضحى التحدي منه وَهْما لا مسار

له إلا في نفوس الضعفاء ، وهنا تظهر الاستهانة والسخرية من إبليس وقواه الموهومة في أفعال الأمر التي تبيح له فعل أقصى ما يمكنه فعله من طرق الإغواء ضاربا به وبقدراته عرض الحائط ، ومضحضا لأفعاله المنوية قبل وقوعها ، وفيه ما فيه من الهزيمة النفسية لإبليس والإحباط الذي يلحقه أبد الدهر .

والطباق بين (خيلك ورجلك) يدعم الاستعارة ؛ إذ به إفساد لمساعي إبليس مهما علت درجتها في المهارة والإتقان ، ومهما تعددت طرقه في الغواية والسطو على بني آدم بجنوده وأتباعه ، ولو كان له من الجنود خيّالة ورجّالة فمهما تنوعت وسائله وحِيله لن يتمكن منهم ، ولن يكون له عليهم سلطان إلا من سار في ركابه من الغاوين ، وهؤلاء عنهم الغنى ، ودونهم المطلب .

وقوله :" **وَشارِكهُم فِي الأَموالِ وَالأَولادِ** " يعني به :" كل معصية يحملهم عليها في بابها ، كالربا والمكاسب المحرمة ، والبحيرة والسائبة ، والإنفاق في الفسوق ، والإسراف ، ومنع الزكاة ، والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام ، ودعوى ولد بغير سبب ، والتسمية بعبد العزى وعبد الحرث ، والتهويد والتنصير ، والحمل على الحرف الذميمة والأعمال المحظورة ."[1]

وعلى هذا يكون في قوله تعالى :" **وَشارِكهُم فِي الأَموالِ وَالأَولادِ** " استعارة تمثيلية ؛ حيث شبه هيئة ما يفعله إبليس مع بني آدم ؛ لتصير أموالهم حراما وأولادهم من حرام ، بهيئة مشاركته لهم في المال والولد

[1] تفسير الكشاف ص٦٠٢

، بجامع اختلاط الحلال بالحرام في كل ، فمشاركة الشر لا ينتج عنها سوى الشر.

وبلاغة الاستعارة تكمن في الإباحة التي تقتضي التحذير من إبليس وعمله وأخذ الحيطة والتحري الدقيق في كل ما يخص الحلال والحرام ، فالمقترب من الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، وحمى الله محارمه ، وهي ما يسعى إبليس ويحوم حولها ؛ ليوقع بني البشر فيها ، وهنا يظهر التحذير بكشف ستره ونواياه لهم ؛ ليعلموا أن ورائهم عدو لدود إن أخذوا الحيطة والحذر لم يضرهم شيئا .

أما عن وعده لهم وتزييف الأماني الخادعة ، فما هي إلا غرور وصفها المولى بقوله :" **وَعِدهُم وَما يَعِدُهُمُ الشّيطانُ إِلّا غُرورًا** " ؛ حيث قصر وعوده كلها على الغرور ، واستخدم من طرق القصر النفي والاستثناء ؛ لتأكيد المعنى ، وفي ذلك التأكيد تنبيه للبشر من اتباع هذا المخلوق الذي تفرغ عن كل شغل شاغل إلا غوايتهم وسوقهم إلى الجحيم ، ولذا نكّر لفظة (غرور) ؛ للتفخيم من كم الغرور الذي يزخرفه الشيطان لبني آدم عن طريق الأماني والوعود الكاذبة ، وإطالة الأمل بالدنيا وقصوره عن الآخرة ، فكم من أمل دنيوي يلهث وراءه البشر طيلة حياتهم يضيعون به أملا باقيا ، فيشترون به زخرفا زائلا بنعيم دائم .

وينتقل المولى من ضمير الغائب في مخاطبة إبليس بقوله :" **وَعِدهُم وَما يَعِدُهُمُ الشّيطانُ إِلّا غُرورًا** " إلى ضمير المخاطب في قوله :" إِنّ عِبادي لَيسَ لَكَ عَلَيهِم سُلطانٌ" ولو سار على الأصل لقال : (ليس له عليهم سلطان) ، ولكنه التفت ؛ ليخصه بالقول المباشر (ليس لك)

مفسدا سعيه ومحبطا عمله ، وأضاف العباد إلى ذاته العلية فقال :" إن عبادي "؛ للتعظيم .

وليس في الكلام صفة محذوفة تقديرها (إن عبادي المخلصين)؛ " لقرينة كون الله تعالى وكيلا لهم يحميهم من شر الشيطان ، فإن من هو كذلك لا يكون إلا عبدا مكرما مختصا به تعالى ، وكثيرا ما يقال لمن يستولي عليه حب شيء فينقاد له عبد ذلك الشيء ، ومنه عبد الدينار والدرهم وعبد الخميصة وعبد بطنه ، ومن هنا يقال لمن يتبع الشيطان عبد الشيطان فلا حاجة إلى القول بأن في الكلام صفة محذوفة ، أي : إن عبادي المخلصين[1] ".

ونكّر له لفظة (سلطان) ؛ للتقليل ، أي ليس لك من السلطان عليهم ولو بأقل مقدار ، فافعل ما يحلو لك لن تحقق كل أمانيك فيهم .

وهنا تصل القصة إلى لحظة الختام قائلا :" **وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا** "؛ لينقل السياق من مخاطبة الشيطان إلى مخاطبة الرسول – صلى الله عليه وسلم - ، وفيه من المؤانسة قدر كبير ؛ إذ بعد أن بين طرق إبليس في الإغواء ، ووضح كراهيته للبشر وتربصه بهم شتى السبل ، طمأنهم بأن وراؤهم متكفلا برعايتهم ، ومثبتا لهم على الحق ، وحافظا لمن اعتصم بحبل الله ، وتائبا على من أناب .

[1] تفسير روح المعاني ١١٣/١٥

المبحث الثاني

حديث إبليس اللعين لآدم وزوجه - عليهما السلام-

ورد في سورة الأعراف قوله تعالى :

وَيا آدَمُ اسكُن أَنتَ وَزَوجُكَ الجَنَّةَ فَكُلا مِن حَيثُ شِئتُما وَلا تَقرَبا هـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكونا مِنَ الظّالِمينَ ﴿١٩﴾فَوَسوَسَ لَهُمَا الشَّيطانُ لِيُبدِيَ لَهُما ما ووريَ عَنهُما مِن سَوآتِهِما وَقالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَن هـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلّا أَن تَكونا مَلَكَينِ أَو تَكونا مِنَ الخالِدينَ ﴿٢٠﴾ وَقاسَمَهُما إِنّي لَكُما لَمِنَ النّاصِحينَ ﴿٢١﴾ فَدَلّاهُما بِغُرورٍ فَلَمّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَت لَهُما سَوآتُهُما وَطَفِقا يَخصِفانِ عَلَيهِما مِن وَرَقِ الجَنَّةِ وَناداهُما رَبُّهُما أَلَم أَنهَكُما عَن تِلكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَكُما إِنَّ الشَّيطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبينٌ ﴿٢٢﴾

وورد في سورة طه قوله تعالى :

" فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى "

بعدما أنهى الله – عز وجل – حواره مع إبليس خاتما إياه بالوعيد الشديد له ولمن اتبعه ، أمر الله – عز وجل – آدم – عليه السلام – أن يسكن الجنة محذره وزوجه وناهيهما عن الأكل من شجرة معينة حددها لهما وشدد عليهما في النهي ، وهنا ينفس إبليس عن حقده وعداوته لآدم ولذريته من بعده ، ويبدأ دوره الأول في الغواية والوسوسة ، قال تعالى في سورة الأعراف :" **وَيا آدَمُ اسكُن أَنتَ وَزَوجُكَ الجَنَّةَ فَكُلا مِن حَيثُ شِئتُما وَلا تَقرَبا هـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكونا مِنَ الظّالِمينَ** "

حيث نادى الله – عز وجل – آدم – عليه السلام – آمرا إياه أن يسكن الجنة ، وناداه باسمه ؛ تشريفا ورفعا لذكره في الملأ الأعلى تكريما له ، والأمر على حقيقته يقتضي وجوب الفعل ، وخصه بالسكنى وجعل حواء تابعة له فيها فقال :" اسْكُن أَنتَ وزَوجك الجنّة " ولم يقل : (اسكنا الجنة) ، بينما ساوى بينهما في الأكل والشرب ، فقال : " فكلا من حيث شئتما " ؛ ليدل على تبعيتها له في السكنى ، فالزوجة تابعة لزوجها في السكنى ، بينما لها الحق في الأكل والشرب كحقه فيهما لا فارق بينهما وفي ذلك يقول الألوسي :

" (اسكن) من السكنى ، وهو اللبث والإقامة والاستقرار دون السكون الذي هو ضد الحركة ، وفي قوله تعالى :" أنت وزوجك الجنة"، وتوجيه الخطاب إليهما في قوله تعالى :" فكلا من حيث شئتما " ؛ لتعميم التشريف والإيذان بتساويهما في مباشرة المأمور به ، فإن حواء أسوة له عليه السلام في حق الأكل بخلاف السكنى فإنها تابعة له فيها[1] "

ولذا فصل بضمير الفصل (أنت) ، فقال :" اسكن أنت وزوجك " وفيه مزيد من التكريم لآدم وكأن سكنى الجنة جُعلَت له في المقام الأول وهيأت له ، وأهله بالتبعية .

والأمر في (فكلا منها) للإباحة والامتنان ؛ حيث أباح لهما الأكل منها منة وفضلا منه – جل علاه - ، وهنا وجّه الخطاب إليهما " تعميما للتشريف والترفيه ...، وإيذانا بتساويهما في مباشرة المأمور به.[2] "

[1] تفسير روح المعاني ٩٩/٨

[2] تفسير أبي السعود ١٥٨/١

والنهي في قوله :" ولا تقربا " على حقيقته يقتضي الالتزام بعدم فعل المنهي عنه ، أي بعدم القرب منها ، ووصل بين (فكلا) و (لا تقربا)؛ للتوسط بين الكمالين فهما إنشائيتان لفظا ومعنى ، **وبلاغة الوصل تكمن في** دخول المنهي عنه في حيز التكريم والامتنان ، فقد منّ الله عليه بالأكل من شجر الجنة ونهاه عن واحدة ، ولا يكون ذلك النهي إلا لضرر سيقع عليه إن أكل منها ، وهو ما حدث بالفعل حين بدت لهما سؤاتهما ، وعليه فالأمر والنهي داخلان في حيز التكريم ، وفيه تشديد وتنبيه على عدم الاقتراب منها ؛ إذ إن من تكرّم وأنعم بالفضل الكبير ؛ وهو سكنى الجنة والأكل منها ثم نهى عن شيء واحد فقط فقد دخل ذلك الشيء في حيز التشديد على عدم الاقتراب منه .

وخصّ الفعل (تقربا) دون (تأكلا) ؛ ليؤكد على النهي عن مجرد الاقتراب منها فضلا عن الأكل ، وعبّر باسم الإشارة للقريب فقال :" هذه الشجرة " ؛ ليشير إلى قربها ودنوها منهما ، فقد كانت بمرأى من أعينهما وتحت أيديهما يراناها عن قرب ويعايناها ومع هذا نهيا عنها ، وفيه مشقة بعض الشيء ؛ إذ النهي عن البعيد على العين أيسر وأهون من النهي عن القريب من العين الحاضر أمام شهوة النفس .

ونصّ على ذكر الشجرة مع الإشارة إليها ، فقال " هذه الشجرة " ؛ ليؤكد على تخصيص النهي لتلك الشجرة بعينها ، لا يتعداها لغيرها .

وهنا يبدأ دور إبليس ، وحديثه من طرف واحد ، فلم يرد على هيئة حوار ظاهر بينه وآدم كما ورد في المبحث الأول على هيئة حوار بينه وبين رب العزة – جل علاه - ، ولكنه أتى هنا عن طريق القول من جهة إبليس فقط ، ويظهر دور آدم – عليه السلام – في تمنعه عن وسوسة

إبليس ثم قبولها من خلال المعنى لا بصريح لفظ آدم – عليه السلام - ، ففي الأعراف أتى حديث إبليس متمثلا في قول الله تعالى :" **فَوَسوَسَ لَهُمَا الشّيطانُ لِيُبدِيَ لَهُما ما ووريَ عَنهُما مِن سَوآتِهِما وَقالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَن هـذِهِ الشّجَرَةِ إِلّا أَن تَكونا مَلَكَينِ أَو تَكونا مِنَ الخالِدينَ** "

وفي طه :" **فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** "

والفعل (وسوس) في سورتي الأعراف وطه معطوف بالفاء ، وهي للسببية في الموضعين ؛ أي ترتب على الإنعام على آدم وزوجه – عليهما السلام – عداوة إبليس فوسوس لهما ، والعطف بالفاء يقتضي الترتيب بلا مهلة أي وقع فعل الوسوسة عقب الإسكان مباشرة ، وفيه دليل على قرب زمن الوسوسة من زمن الإسكان بالجنة مما يدل على بالغ حقد إبليس وعداوته ؛ إذ لم يتمهل بل أخذ يلقي شباكه مباشرة عقب إنعام الله عليهما بسكنى الجنة .

والفعل وسوس معناه تكرار الكلام الخفي " يقال وسوس : إذا تكلم كلاما خفيا يكرره ، وهو فعل غير متعد ...، ومعنى (وسوس له) : فعل الوسوسة لأجله ، ووسوس إليه ألقاها إليه[1] "

وبالملاحظة في سورة الأعراف (فوسوس لهما) وفي سورة طه (فوسوس إليه) فجمع في الوسوسة بين (له وإليه) ؛ ليدل على أنه وسوس لهما وإليهما ؛ أي فعل الوسوسة لأجلهما وألقاها إليهما ، وكأنه أفرغ نفسه من كل شغل شاغل إلا إتقان الوسوسة لهما وإليهما إعدادا ذهنيا منه ثم إلقاءً خارجيا لهما .

[1] تفسير الكشاف ٣٥٩

والفعل (وسوس) رباعي مضعف يدل ومصدره على تكرار الفعل ، بمعنى ألقى لهما الوسوسة إلقاء بعد إلقاء ، فلم تقتصر الوسوسة على مرة واحدة وانتهى الأمر بل هي أمر متكرر منه ؛ حتى يستميلهم ويحقق فيهم إغواءه .

يقول ابن جني عن هذه الأفعال ومصادرها :" تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير نحو الزعزعة والقلقلة والصلصلة والقعقعة والصعصعة والجرجرة والقرقرة ...فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر[١]".

وجعل غرضه من الوسوسة في (الأعراف) أن يبدي لهما ما ووري عنهما من سؤاتهما ، قال تعالى : " **فَوَسوَسَ لَهُمَا الشّيطانُ لِيُبدِيَ لَهُما ما ووريَ عَنهُما مِن سَوآتِهِما** "، وغرضه أكبر من ذلك ؛ أن يوقعهما في العصيان ويتسبب لهما في ضرر فادح بذلك العصيان ، ولكن لما كان كشف العورة هتكا للستر وإحزانا للقلب وإساءة للنفس ، وقد كانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر ؛ جعلها غرضا للوسوسة وقد كانت أولى نتائج المخالفة الواقعة على آدم – عليه السلام – وزوجه قبل الهبوط من الجنة .

وفي إسناد إبداء السوءات إلى الشيطان مجاز عقلي علاقته السببية ؛ لأنه كان سببا في حدوثه .

(يقال كانت عوراتهما من نور ، أو عليها نور لا يريانها فلما أكلا من الشجرة بدت لهما [٢].)

---

[١] الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني ص٢٥٩ط٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب د.ت

[٢] ينظر : تفسير روح المعاني ٨/ ٩٩

وسر بلاغة المجاز تكمن في بيان عداوة إبليس لآدم وبنيه ؛ إذ كان سببا في هتك ستر أبيهم ، وفيه من التنبيه لبني آدم قدر كبير ؛ إذ حاله معهم كحاله الأول مع أبيهم يوسوس بالمعصية ويحث عليها ؛ ليفضحهم ويخزيهم ، فإذا وقع فيها بنو آدم تبرأ منهم ، ولذا أكد الله تعالى على عداوته لهم ، وعلى وجوب الحذر منه قال تعالى :" إنّ الشيْطَانَ لَكم عَدو فَاتخذوهُ عَدوا "

وورد لفظ القول في الأعراف بالواو ، وفي طه بدون واو ، ففي الأعراف :" **فَوَسوَسَ لَهُمَا الشّيطانُ ..... وقالَ** "

وفي طه :" **فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم ...** "

ليدل على أن الوسوسة في الأعراف شيء والقول شيء آخر ، فقد وسوس بشيء ، وقال شيء آخر ، بينما في طه الوسوسة والقول شيء واحد، وهو قوله : (هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى) ، وفي الأعراف هناك وسوسة ثم قول ، القول معبر عنه بقوله تعالى :" وَقالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَن هذِهِ الشّجَرَةِ إلّا أَن تَكونا مَلَكَينِ أَو تَكونا مِنَ الخالِدينَ " أما الوسوسة فربما تكون ما ورد في سورة طه من قوله : (هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى) ، وعلى هذا ربما يكون قد وسوس أولا بقوله : (هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى) ثم قال ثانيا : (ما نَهاكُما رَبُّكُما عَن هذِهِ الشّجَرَةِ إلّا أَن تَكونا مَلَكَينِ أَو تَكونا مِنَ الخالِدينَ) .

وهنا يبدي الشيطان التودد لآدم ويتبع سبيل التقرب فيقول في (الأعراف) :" ما نهاكما ربكما " ؛ فاختص لفظ الربوبية وأضافه إليهما فقال (ربكما) ؛ ليتودد إليهما ويوضح أنه لهما ناصح أمين يعلم حالهما

مع ربهما وما أمرهما به وما نهاهما عنه ؛ ليوهمهما أن الأمر منه ليس عداوة لربهما ولكن نصحا لهما ، وفي (طه) قال :" يا آدم هل أدلك " فناداه باسمه ؛ ليطمئنه ، ويبث في نفسه الثقة من جهته ؛ إذ لم يكن غيرهما في الجنة ، فعلمه باسمه يوجب علمه بأشياء أخرى ، وهذا هو المدخل الذي سلكه إبليس مع آدم – عليه السلام – مدخل الناصح الأمين العالم بأحوالهما ؛ ليحوز ثقة آدم ويهيأه لقبول وسوسته .

وقوله في (طه) : " **هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى**" استفهام خرج عن معناه الحقيقي إلى العرض مع التشويق .

تكمن بلاغته في بيان مكر إبليس ؛ إذ اتبع طريق التشويق وابتدأ به ؛ ليجذب مخيلة آدم ، ويضع قدمه على أولى مراحل الذلل ، وهي مرحلة التفكير بالأمر ، ولذا عبّر بالمضارع فقال : (أدلك) ؛ ليتخذ من التكرار النابع من الفعل تكرارا لمرور الفكرة على مخيلة آدم ؛ ليظل آدم يفكر في شجرة الخلد والملك الذي لا يبلى، وأضاف لفظة (الخلد) إلى (الشجرة) ؛ لإغراء آدم – عليه السلام – بأكثر أمنيات بني آدم طلبا وهي طول العمر ، ويتطلب الخلود أو طول العمر نعيما وإلا فلا كبير فائدة مع الإغراء بطول العمر دون راحة وتنعم ؛ لذا ألقى إليه الإغراء الثاني (وملك لا يبلى) منكرا لفظة (ملك) ؛ للتعظيم ؛ ليفخم من وعده المزعوم بالملك العظيم الذي نفى عنه البلى ، فقال :(لا يبلى) بالمضارع المنفي؛ ليكرر من نفي لحوق البلى به ، فهو زعم بملك عظيم محفوظ من التبدل والتغيير ، وقوله :" لا يبلى " احتراس وتكميل أتى به ؛ ليرفع عن توهم آدم – عليه السلام – احتمالية بلاء ذلك الملك وفنائه مع الأيام ؛ إذ لا

نعيم في طول العمر مع البؤس أو مع ملك زائل ، ولذا احترس ؛ ليضع أمام مخيلة آدم – عليه السلام – خلودا وملكا عظيما لا يلحقه الفناء .

وفي الأعراف : " **وَقالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَن هـذِهِ الشَّـجَرَةِ إِلّـا أَن تَكونا مَلَكَينِ أَو تَكونا مِنَ الخالِدينَ**"

تلك هي المرحلة الثانية ، مرحلة الجدال مع آدم ، ففي المرحلة الأولى الواردة في سورة (طه) اقتصرت الوسوسة على التشويق والجذب للأكل من الشجرة ؛ حيث قال :" **هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى** " ، أما في سورة الأعراف فمرحلة تالية لذلك التشويق أتت بعد أن دلّه على الشجرة وأعلمه أنها الشجرة نفسها التي نهاه الله عنها ، ولذلك ورد لفظ (قال) في الأعراف بالواو ، فالوسوسة شيء وهو التشويق الوارد في سورة طه ، والقول شيء آخر وهو ما زاد على ما ورد في سورة طه ؛ حيث بدأ هنا في مجادلة آدم – عليه السلام – فقال :" **ما نَهاكُما رَبُّكُما عَن هـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلّا أَن تَكونا مَلَكَينِ أَو تَكونا مِنَ الخالِدينَ** " فنصّ على الشجرة مع الإشارة إليها قائلا :(هذه الشجرة) ؛ ليوقعهما في المفسدة ؛ حيث هي ذاتها الشجرة المنهي عنها .

واستخدم أسلوب القصر بالنفي والاستثناء ؛ ليقطع لهما القول مؤكدا على أن سيكونان ملكين أو من الخالدين ، فهو يؤكد لهما من خلال القصر في سورة الأعراف ما شوقهما له في سورة (طه).

وَقاسَمَهُما إِنّي لَكُما لَمِنَ النّاصِحينَ "

(وقاسمهما) : " المقاسمة : أن تقسم لصاحبك ، ويقسم لك ، وتقاسما : تحالفا[1] "

[1] تفسير الكشاف ص٣٥٩

إذن هي مفاعلة من الطرفين ؛ وإنما اختص وزن المفاعلة دون غيره؛ ليبين أنه أخذ وقتا في خداعهما ، يقسم لهما ويراجعانه ويردانه ، فيقسم لهما مرة أخرى ، وما زال الأمر بينهم في العرض والرد إلى أن وقعا في الشراك .

والخبر في قوله تعالى :" **وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين** " إنكاري مؤكد بأكثر من مؤكد ؛ مما يدل على أن الغالب على حالهما معه كان الإنكار وعدم التصديق ؛ مما حمله على القسم والتأكيد ، وما زال يؤكد لهما حتى استمالهما .

وقدم الجار والمجرور (لكما) ؛ ليخصهما بالنصيحة ، وكأنه تجرد لنصحهما ؛ مما يجعل منه مصدرا موثوقا به بالنسبة إليهما .

فدلاهما : " أي حطهما عن درجتهما وأنزلهما عن رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية ، فهو من دلى الدلو في البئر[1]"

وقوله :(بغرور) أي : " بما غرهما به من القسم بالله ، وعن قتادة: وإنما يُخدع المؤمن بالله ، وعن ابن عمر – رضي الله عنه – أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه ، فكان عبيده يفعلون ذلك ؛ طلبا للعتق ، فقيل له : إنهم يخدعونك ، فقال : من خدعنا بالله انخدعنا له[2]."

[1] تفسير روح المعاني ٨/١٠٠

[2] تفسير الكشاف ص٣٥٩

وقوله تعالى :" فدلاهما بغرور " استعارة والمراد أنه أوقعهما في أهوية غروره لما كان كل واقع في مثل ذلك فإنه نازل من علو إلى استفال ، ومن كرامة إلى إذلال[1] ."

حيث استعار الدلي الحسي من إنزال الدلو في البئر إلى الهبوط بالمنزلة المعنوي .

ويبدو سر بلاغة الاستعارة في ذلك التصوير الذي نقل منزلة عليا في السماء في جنة الرحمن إلى قاعٍ منخفض كبئر أُدلي فيه ، مما يوضح بالغ الخسارة المحققة لمن استجاب لوسواس اللعين ، هذا ومن جانب آخر فإن التعبير بالدلي هنا يحمل معه أثرا سيئا في النفس ؛ إذ يترك الحسرة والألم في القلب ؛ لفوت تلك المنزلة العظيمة ، ولذا ورد لفظ التوبة لربهما بقولهما :" رَبَّنا ظَلَمنا أَنفُسَنا وَإِن لَم تَغفِر لَنا وَتَرحَمنا لَنَكونَنَّ مِنَ الخاسِرينَ " .

ونصّ على ذكر الشجرة في سورة الأعراف فقال : " **فلمّا ذَاقا الشجرَة بَدت** " ، بينما ذكرها بالضمير في سورة طه فقال : " **فأكلا منها فبدت** " فالنص عليها في الأعراف ؛ لبعد ذكرها في المرة الأولى ؛ حيث أخذ الشيطان وقتا في مراجعتهما وطال الحديث فقال : " **إِلّا أَن تَكونا مَلَكَينِ** " ، " **أَو تَكونا مِنَ الخالِدينَ** " ، " **وَقاسَمَهُما إِنّي لَكُما لَمِنَ النّاصِحينَ** " ، " **فَدَلّاهُما بِغُرورٍ** " فلما بعد ذكر الشجرة ؛ لطول المماطلة أعاد ذكرها مرة أخرى ، فقال : "**فَلَمّا ذاقَا الشّجَرَةَ** " ، أما في سورة طه ، فلم يجادلهم الشيطان ، ولم يطُل الفاصل بين ذكرها أولا

[1] تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي – تحقيق : د. علي محمود مقلد ص٦٨ ط١ دار مكتبة الحياة – بيروت لبنان د.ت

وثانيا ، فأعاد ذكرها بالضمير قائلا :" **هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها** " ؛ لقرب العهد في الحديث عنها .

وقوله :" بدت " وقع جواب (لما) في الأعراف ؛ مما يظهر سرعة الحدوث بمجرد تذوقهم للشجرة بدت عوراتهما ، أما في سورة طه فسرعة الحدوث نابعة من الفاء العاطفة في قوله :" فبدت " ، والتي تدل بدورها على سرعة التعقيب فما إن أكلا منها إلا وبدت لهما سؤاتهما .

وقوله :" بَدَت لَهُما سَوآتُهُما " أي تهافت عنهما اللباس ، فظهرت عوراتهما " .

وقال : (لهما) ، ولم يقل : (بدت سؤاتهما) ؛ ليؤكد على رؤيتهما لذلك ؛ لأنهما كانا لا يريانها من أنفسهما ، بل كان نورا يسترها يحول بينهم والرؤية ، وفي التفاسير :

"كانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر [1]"

وَطَفِقا يَخصِفانِ[2] عَلَيهِما مِن وَرَقِ الجَنَّةِ "

في (طفق يخصفان) استعارة تصريحية تبعية[3] .

---

[1] تفسير روح المعاني ٨/٩٩

[2] طفق يفعل كذا : جعل يفعل كذا / مختار الصحاح مادة (طفق)

وخصف النعل : خرزها ، وقوله تعالى : " طفق يخصفان عليهما من ورق الجنة " أي يلزقان بعضه ببعض ؛ ليسترا به عوراتهما / السابق مادة (خصف)

[3] حيث استعار الخصف ، وهو خرز النعل بجعلها طبقة فوق طبقة وإحكامها ، للزق ورق الجنة بعضه ببعض ، واشتق من الخصف (يخصف) على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل .

وبلاغة الاستعارة تكمن في بيان سرعة تصرفهما مما يوحي ببيان سوء الموقف الذي كانا فيه ، هذا ومن جانب آخر فإنها توضح أن كشف العورات من المستهجن القبيح الذي تأباه الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها .

وفي قوله : (عليهما) مجاز مرسل علاقته الكلية ؛ لأنهما كانا يخصفان على سؤاتهما لا على جميع بدنهما .

وبلاغة المجاز تكمن في بيان سوء حالتهما المعنوية التي جعلت همهما خصف الأوراق بعضها على بعض .

وقوله :" وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا " استخدم فيه لفظ الربوبية ، ولم يقل : (ونادهما الله) ؛ ليشعرنا برحمة الله بهما حتى قبل عتابهما ، فالتعبير بالربوبية تمهيد للصفح والغفران ، وإشعار بالقرب والرحمة .

وقوله :" **أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ** " استفهام عتابي ؛ وذلك لأنه حذّرهما من عداوة إبليس مسبقا ، ونهاهما عن الشجرة فنسيا ، وأشار للبعيد فقال :" تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ " ؛ ليشير إلى بعدها عن التناول كما أمر الله – عز وجل - ، وبعدهم عن الصواب حين اقتربوا منها .

وذكر الشجرة مع الإشارة إليها فقال : (تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ) ؛ لمزيد من النص والتأكيد على أن تلك الشجرة هي بعينها التي حرمتها عليكم ومع ذلك وقعتم في المحذور .

" وروي أنه قال لآدم : ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة ؟ فقال : بلى وعزتك ، ولكن ما ظننت أن أحدا يحلف بك كاذبا ، قال : فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش

إلا كدا ، فأُهبط وعُلم صنعة الحديد ، وأمر بالحرث ؛ فحرث وسقى ، وحصد وداس وذرى ، وطحن وعجن وخبز[1] ."

وعبّر بالمضارع في (أنهاكما – أقل) ؛ ليدل على تكرار النهي والقول ، وكأن الله – عز وجل – أكد لهما على عداوة إبليس وعلى النهي عن الأكل من الشجرة ، ولذا أكد جملة (إِنَّ الشَّيطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبينٌ) ، وقدّم فيه الجار والمجرور (لكما) على خبر إن (عدو مبين) ؛ ليقوي الحكم ويؤكد على عداوة إبليس لهما ، فآدم المكرم عند الله الذي سجدت له الملائكة أجمعون ، وهو وزوجه أول جنس البشر الذي عاداه إبليس ، وأقسم متوعدا باحتناك ذريته ، ففي التأكيد تنبيه على الانتباه لأصل القضية وهو عداوة إبليس لبني آدم ، ووجوب أخذ الحذر منه .

وفي سورة طه :" ثُمَّ اجتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَليهِ وَهَدَى "

فعطف بـ(ثم) الدالة على زمن التراخي المتمثل في الطفق والخصف والنداء والاستفهام والعتاب ، وفيه فسحة من الوقت ؛ لمراجعة النفس ، والاعتراف بذللها والتهيأ لطلب الصفح والغفران .

وهنا يأتي دور الفعل في (اجتباه) بما يحمله زمن المضي من تحقق وقوع الاجتباء ، واجتبى الشيء بمعنى جمعه[2]، وقد استعار ذلك المعنى للاصطفاء ، وجعل الاجتباء من الرب ؛ حيث أضاف لفظة (رب) إلى ضمير آدم ، فقال :" اجتباه ربه " ، وفيها من التسامح والرحمة والاحتواء قدر كبير ، فالاستعارة تدل على بالغ العطف والحنان من المولى – جل علاه- لآدم – عليه السلام - ، ولهذا عبّر بلفظتي (تاب

[1] تفسير الكشاف ص٣٦٠

[2] ينظر : اللسان مادة (جبي)

وهدى) بالمضي ؛ ليدلان على تحقق قبول التوبة من آدم ليس فقط ، ولكن مع نفحة من الهداية تجعله على الصراط المستقيم ، وتؤكد له الدرس التطبيقي عن عداوة إبليس له ولذريته من بعده .

المبحث الثالث

وسوسة الشيطان للضالين من الإنس والجان

ورد حديث الشيطان مع الضالين من الإنس والجان في مواضع ثلاثة ، ففي سورة الأنفال خاطب المشركين الذين قاتلوا في بدر يقول تعالى :

" وإذْ زَيّنَ لهُم الشيْطانُ أعمالهُم وقَالَ لا غَالبَ لَكُم اليَومَ منَ النّاس وَإنّي جَارٌ لَكُم فَلمّا تَراءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ على عَقبيهِ وَقَال إنّي برئٌ منكُم إنّي أرَى ما لا تَرونَ إنّي أَخافُ اللهَ واللهُ شَديدُ العِقابِ "

وفي سورة إبراهيم خاطب أهل النار من الإنس والجن جميعا ، قال تعالى:

" وَقَالَ الشّيْطَانُ لَمّا قُضِيَ الْأَمْرُ إنّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إلّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيّ إنّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إنّ الظّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "

وفي سورة الحشر قيل إنه خاطب مشركي أهل مكة ممن حضروا بدرا كما في سورة إبراهيم ، وقيل: خاطب راهبا عابدا من زمن مضى دعاه إلى الكفر فكفر ثم تبرأ منه يقول تعالى :

" كَمَثَلِ الشّيْطَانِ إذْ قَالَ لِلْإنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمّا كَفَرَ قَالَ إنّي بَرِيءٌ مِنْكَ إنّي أَخَافُ اللّهَ رَبّ الْعَالَمِينَ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنّهُمَا فِي النّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظّالِمِينَ "

والمواضع الثلاثة تتكامل ؛ لتبرز نهج الشيطان في الإغواء ، ثم توضح ديدنه عند وقوع الموسوس له في الضلال .

فالآية في صورة الأنفال تخص ما أغوى به الشيطان الكفار في غزوة بدر ، والآيات قبلها تُحث على الطاعة ، وتنهى عن التنازع والفرقة يقول الله تعالى:" **وَأطيعُوا اللهَ ورسوله ولا تَنازعُوا فَتفْشَلُوا وَتذْهَب رِيحكم ...**"، وتحذرهم من التشبه بالمشركين في غزوة بدر ؛ حيث خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ؛ أي خرجوا فخرا وكبرا ؛ حيث خرجوا لمنع عيرهم أن تقع في قبضة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وقد كان أبو سفيان قد كتب لهم بذلك ، فلما رأى أبو سفيان "أنه قد نجا ، وأحرز العير ، كتب إلى قريش أن ارجعوا ؛ فإنكم إنما خرجتم ؛ لتحرزوا عيركم ، فأتاهم الخبر وهم بالجُحفة ، فهموا بالرجوع ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نقدم بدرا ، فنقيم بها ، ونطعم من حضرنا من العرب ، وتخافنا العرب بعد ذلك[1]. " فخرجوا تفاخرا بعددهم وقوتهم ورغبة منهم في القضاء على دعوة الإسلام ، فذلك قول الله تعالى فيهم :" **وَلا تَكُونُوا كَالذينَ خَرجُوا مِن دِيارهم بَطرًا وَرِئاءَ النّاس .....**"

وهنا يأتي دور الشيطان ووسوسته وحديثه مع مشركي مكة[2] ؛ لتحريضهم ضد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه يقول تعالى:" وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم "

---

[1] سيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم - / محمود المصري ص٢٤٨ ط١ مكتبة الصفا ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م

[2] فسر بعضهم حديث الشيطان هنا على الوسوسة ، وفسره بعضهم على القول الحقيقي ؛ حيث ذكروا أنه تمثل للمشركين في صورة سراقة وحدثهم حقيقة ليحرضهم على القتال ثم تخلى عنهم ./ ينظر تفسير الزمخشري ص٤١٦

" (إذ) ظرف لما مضى من الزمان[1]" منصوب بفعل مضمر، تقديره: اذكر إذ زين لهم الشيطان ، وتذكير النبي – صلى الله عليه وسلم – بهذا الموقف من إظهار نعم الله عليه ؛ إذ نجاه من المشركين رغم كثرتهم ، وقلة عدد المؤمنين حينئذ ، وفيه تأكيد للتحذير السابق ذكره من أن يكونوا كالمشركين الذين خرجوا بطرا ورئاء الناس ؛ دلالة على إحباط العمل المبتغى به وجه الشيطان وإن أُحكم تدبيره.

و (زين) أي: حسّن لهم عملهم من الخروج لقتال المؤمنين بطرا وفخرا وعجبا بأنفسهم وقوتهم ، وهنا يستخدم الفعل الماضي الدال على تحقق وقوع الإغواء والتزيين من إبليس اللعين لعملهم المحبط ، فقد قيل إنه :" لما اجتمعت قريش على السير ذكرت الذي بينها وبين بني كنانة من الحرب فكاد ذلك يثنيهم ؛ فتمثل لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم الشاعر الكناني ، وكان من أشرافهم في جند من الشياطين معه راية ، وقال: لا غالب لكم اليوم ، وإني مجيركم من بني كنانة ، فلما رأى الملائكة تنزل نكص ، وقيل : كانت يده في يد الحرث بن هشام ، فلما نكص قال له الحرث : إلى أين ؟ أتخذلنا في هذه الحال ؟ فقال : إني أرى ما لا ترون ، ودفع في صدر الحرث وانطلق ، وانهزموا فلما بلغوا مكة قالوا : هزم الناس سراقة ، فبلغ ذلك سراقة فقال : والله ما شعرت بمسيرتكم حتى بلغتني هزيمتكم ، فلما أسلموا علموا أنه الشيطان ، وفي الحديث : وما رؤى إبليس يوما أصغر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة لما يرى من نزول الرحمة إلا ما رُؤى يوم بدر.[2] "

---

[1] الجنى الداني ص١٨٥

[2] تفسير الزمخشري ٤١٦

وقدم الجار والمجرور (لهم) على المسند إليه (الشيطان) ، والأصل (زين الشيطان لهم) قدمه ؛ ليقوي الحكم بوقوع التزيين والإغواء ويؤكده ، وليس على سبيل القصر ؛ لأن الشيطان زين لهم ولغيرهم وأغوى كثيرين كما سيرد في المواضع التالية ، ولكن لما أراد الشيطان أن يقضي على دعوة محمد – صلى الله عليه وسلم - غيظا وحقدا أجهد نفسه في التزيين لمشركي مكة في الخروج لقتاله ، وقد علموا أن عيرهم مع أبي سفيان ولا حاجة للقتال ولكنها العصبية للشرك والأوثان هي التي أشركتهم وإبليس في صف واحد يقاتلون ؛ ليطفئوا نور الحق الذي أظهره الله رغم أنف المشركين .

"وقَالَ لا غَالبَ لَكُم اليَومَ منَ النّاس وَإنّي جَارٌ لَكُم "

" أي ألقى في روعهم وخيل لهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون ؛ لكثرة عَدَدهم وعُدَدهم ، وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات مجير لهم ؛ حتى قالوا : اللهم انصر إحدى الفئتين وأفضل الدينين[1] ".

ووصل بين الجملتين (زين لهم ... وقال لا غالب ...) ؛ للتوسط بين الكمالين.

وبلاغة الوصل تكمن في تعداد أفعال الشيطان في ذلك اليوم ، فقد وسوس وزين وقال ، وما زال بهم حتى خاضوا الحرب رغم علمهم بعودة العير ، وأن محمدا – صلى الله عليه وسلم – لم يمسهم بسوء ، وما ذاك منه إلا حقدا وحسدا وخشية أن تنتشر دعوة الإسلام ويُكتب لها البقاء ، **وبلاغة** تعداد أفعاله هنا تكمن في التحذير من عدائه قال تعالى :" إنّ الشَيْطانَ لكُم عَدو فَاتخذوهُ عَدُوا " .

[1] تفسير أبي السعود ٤/٢٦

وقد أوهمهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ، فاستخدم اسم الفاعل المنفي (لا غالب)؛ ليفيد ثبات النفي الدال على انعدام وجود الغالب البتة، فهو ضمان ممن لا عهد له ولا ذمة .

وحدد انعدام الغلبة بالزمن فقال :" لاغالب لكم اليوم " ؛ لمزيد من تحفيزهم ؛ حيث أغراهم بكثرة عددهم فضلا عن قلة عدد المؤمنين ، فقد كانوا أكثر من الألف مقابل ما يقرب من ثلثمائة من المؤمنين فجعل من ذلك اليوم في نظرهم صيدا وفوزا لن يتكرر إما أن يقضوا على دعوة محمد – صلى الله عليه وسلم - اليوم قبل أن تقوى شوكتهم أو لن ينصروا بعد وتضيع هيبتهم ومكانتهم ، فجعل من تخصيص اليوم بالذكر؛ تحفيزا وتحريضا على القتال .

وفي التعبير بلفظ (الناس) مجاز مرسل علاقته الكلية ؛ حيث أطلق الكل وهو الناس ، وأراد الجزء وهم المؤمنون ممن شهد بدرا .

وسر بلاغة المجاز تكمن في بيان بالغ تلك الثقة العمياء من الشيطان التي جعلت حمايته المزعومة تتعدى من شهد بدرا من المؤمنين إلى لفظة الناس التي توهم للوهلة الأولى أن ضمانه يشمل الناس كلهم ، وتلك الثقة العمياء انعكست على المشركين بالغرور الأعمى ؛ حيث أقدموا على الحرب وعندهم يقين بالنصر على النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – ومن تبعه من المؤمنين ، فتوهم أبو جهل أن سينتصر على محمد – صلى الله عليه وسلم – ويعود ليعلن نصره للعرب كافة ، وينحر الذبائح ، ويسقي الخمر ويتلذذ بسماع القيان ؛ فهزمهم الله ، وسقاهم كأس المنية ، وسُمِع عليهم الويل والنواح بدلا من المعازف والغناء ، هو ذاك الغرور نفسه الذي جعل إبليس يأبى السجود لآدم ، فالاستكبار فيه

شيمة ينقلها في عروق من تبعه ، حتى إنك لتجد من أول صفات الضالين الغرور والاستكبار.

وأكد قوله :" **وإنّي جَار لَكُم** " ؛ ليطرح الطمأنينة في قلوبهم ؛ لمزيد من الخداع؛ حتى يتعلقوا بالوهم فيصير كأنه ضمان لا رجوع فيه.

" فَلمّا تَراءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ على عَقبيهِ"

تراءت الفئتان : أي تلاقى الفريقان ، وأصله من (تراءى القوم إذا رأى بعضهم بعضا[1]) ، فالتراءي هنا كناية عن التلاقي بدليل قوله :" نكص على عقبيه " ، وهنا وفي ذاك الوقت الحاسم (نكص) إبليس على عقبيه ، أي رجع القهقري ؛ حيث رأى الملائكة تنزل من السماء فرجع للخلف مسرعا ، " وقيل : كانت يده في يد الحرث بن هشام ، فلما نكص قال له الحرث : إلى أين ؟ أتخذلنا في هذه الحال ؟ فقال : إني أرى ما لا ترون ، ودفع في صدر الحرث وانطلق[2] " ، وهي كناية عن خذلانه وتخليه عنهم فـــ(النكوص : الرجوع إلى الوراء ، وهو القهقري ، ونكص على عقبيه : رجع عن الخير خاصة[3]) ، وإبليس لم يرجع عن الخير فأمره كله شر ، ولكن لما كان من أمره أن حالفهم على النصرة بقوله : (لا غالب لكم) و (إني جار لكم) اعتبر مساندته خيرا لهم رجع فيه ، وإن كان أمره كله شرا ، هذا إن كان إبليس قد تمثل لهم بالفعل في صورة رجل ورجع إلى الوراء وقت أن رأى الملائكة ، أما إن كان مدار الآية على الوسوسة ولم يتمثل في صورة رجل بالفعل ، فيكون بقوله

---

[1] ينظر : اللسان مادة (رأي)

[2] تفسير الكشاف ص٤١٦

[3] ينظر : اللسان مادة (نكص)

تعالى :" نكص على عقبيه " استعارة تمثيلية ؛ حيث استعار هيئة بطلان كيده ورجوعه عن وعده لهم بالنصر ، بهيئة رجوعه القهقري إلى الوراء في ساحة القتال ، وعلى كلٍ فالآية الكريمة توضح خبث إبليس وديدنه من الكذب ، والتخلي عن نصرة من تبعه في أضيق الأحوال ، فهي تنبه على عداوته الأزلية .

" وَقَال إنّي بريئٌ منكُم إنّي أرَى ما لا تَرونَ إنّي أَخافُ اللهَ واللهُ شَديدُ العِقابِ "

أكد القول هنا بـ(إن) فقال : (إني برئ – إني أرى – إني أخاف) كما أكده من قبل حين أوهمهم أنه لهم نصير وجار فقال مسبقا : (إني جار لكم) ، وهذا ديدنه لا يزال بالمرء يستهويه ويسلك له كل سبيل حتى يوقعه في شباكه ، فإذا وقع تبرأ منه بالقوة نفسها التي تقرب بها إليه ، فالتأكيد هنا إشارة خفية تنبه كل مؤمن لحقيقة عدو الله وعدوهم.

واستخدم لفظة (برئ) دون غيرها ؛ ليسلت نفسه سلتا قاطعا كل صلة بينه وبينهم ، واستخدم الاسم دون الفعل (أبرأ) ؛ ليثبت نفسه على التخلي عنهم ويجعل ذلك أمرا محققا لا رجعة فيه ؛ وذلك لما رأى جبريل قد نزل المعركه ومعه إمداد من الملائكة ،ولذا قال : (**إنّي أرَى ما لا تَرونَ**) وهنا عبّر بالفعل المضارع (أرى) الدال على التجدد لِما رأى الإمداد بالملائكة يتنزلون من السماء ، وشعر بأن طامة كبرى تتنزل على رأسه تنزلا غير منقطع ، وخشى أن لو استمر متواجدا في المعركة لحلت به النوائب .

أما قوله : (إني أخاف الله) أي " أخافه أن يصيبني بمكروه من الملائكة ، أو يهلكني ويكون الوقت هو الوقت الموعود ؛ إذ رأى فيه ما لم يره قبله[1] ." ، وليس به خوف من الله " ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له ؛ حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم ، وتبرأ منهم عند ذلك[2] ."

وتلك هي عادة إبليس في التخلي عن تابعيه وخذلانهم وإلحاق الخزي الأشد بهم ، في كل مرة وعدٌ وإيهام بالنصر ، وتزيين للسوء ؛ حتى يبدو للضالين ذو رونق حسن ، فإذا وقعوا في الشراك احتنكهم ، فإذا احتنكهم وضيعوا أنفسهم تخلى عنهم .

وبالنظر إلى الموضع الثاني في سورة إبراهيم ، وفيه يقول الله تعالى :

" وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "

أجد اشتراكا بين الموضعين في بيان نهج إبليس ؛ ففي الموضع الأول تخلى عن الإنس عن مشركي مكة ، وهنا تخلى عن كفار الإنس والجن جميعا عن كل من اتبعه وأشرك بالله عن أهل الجحيم جميعا ، وفي الموضع الأول تخلى عنهم في الدنيا وتركهم في ساحة المعركة وانطلق، وهنا أعلن تخليه عنهم في الآخرة ، فهنا يخبر الله تعالى " عما خطب به

[1] تفسير أبي السعود ٤/٢٦

[2] تفسير ابن كثير ٤/٧٤

إبليس – لعنه الله – أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده ، فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات ، فقام فيهم إبليس – لعنه الله - حينئذ خطيبا ؛ ليزيدهم حزنا إلى حزنهم ، وغبنا إلى غبنهم ، وحسرة إلى حسرتهم ، فقال : إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ[1] " .

" وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ"

علق قول الشيطان على قضاء الأمر ؛ مما يوضح خبثه ولؤم طبعه ؛ إذ يتودد للإنسان ، ويسلك لإغوائه كل سبيل؛ حتى إذا وقع في المحظور، وقُضي الأمر تبرأ منه .

[1] بعدما ذكر ابن كثير تلك المناسبة للآية علق قائلا : " والظاهر من سياق الآية : أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار ، كما قدمنا ، ولكن قد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم – وهذا لفظه – وابن جرير من رواية عبد الرحمن بن زياد حدثني دخين الحجري عن عقبة بن عامر ، عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال :" إذا جمع الله الأولين والآخرين ، فقضي بينهم ، ففرغ من القضاء ، قال المؤمنون : قد قضى بيننا ربنا ، فمن يشفع لنا ؟ فيقولون : انطلقوا بنا إلى آدم – وذكر نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى – فيقول عيسى : أدلكم على النبي الأمي ، فيأتوني ، فيأذن الله لي أن أقوم فيثور من مجلسي من أطيب ريح شمها أحد قط ، حتى آتي ربي فيشفعني ، ويجعل لي نورا من شعر رأسي إلى ظفر قدمي ، ثم يقول الكافرون هذا : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ، فمن يشفع لنا ؟ ما هو إلا إبليس هو الذي أضلنا ، فيأتون إبليس فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ، فقم أنت فاشفع لنا ، فإنك أنت أضللتنا ، فيقوم فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط ، ثم يعظم نحيبهم ، (وقال الشيطانُ لمّا قُضي الأمرُ إن اللهَ وعدكُم وَعد الحَق ووعدتكُم فَأخلفتكم ومَا كَان لي عَليكُم من سُلطان إلا أن دعَوْتكم فَاستجبْتُم لي فَلا تَلومُوني وَلُومُوا انفسَكُم) " مرفوعا تفسير ابن كثير ٤/٤٩٠

وبنى الفعل (قُضي) للمفعول ؛ للعلم بالفاعل ، فقضاء الأمور كلها عائد إلى الله ، ويعني بقضاء الأمر هنا الحكم بين أهل الأرض أجمعين بدخول الجنة أو النار .

وأكد القول بـ(إن) في قوله :" **إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ** "؛ ليزيدهم حسرة وندامة ، فأهل النار في موقف عصيب يترقبون فسحة من الرحمة أو بشارة بالخير من شفيع ، وهنا يقف الشيطان فيهم خطيبا ؛ ليزيدهم حسرة على حسرتهم ، فيمزق قلوبهم بقوله :" إن الله وعدكم وعد الحق " ، ويتبعه بقوله :" ووعدتكم فأخلفتكم " ؛ ليزيدهم ندامة ، ولذا كرر اللفظ الدال على الوعد ، وكان له أن يقول : (إن الله وعدكم وعد الحق وأخلفتكم) ، ولكنه كرر اللفظ فقال :(**وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ**) ؛ تذكيرا لهم بما مناهم وأملهم به ؛ ليشعرهم بخيبة الأمل لاتباعهم حلم زائف ووعد باطل .

وعطف بالفاء في (فأخلفتكم) رغم وجود فترة زمنية مديدة بين وعده لهم في الدنيا وتبين بطلان ذاك الوعد في الآخرة ؛ ولكن عطف بالفاء ؛ ليوحي بقرب الزمن بين وعده في الدنيا والحكم بينهم في الآخرة وكأن الدنيا مضت في لحظات ، ولهذا يقول الله تعالى في موضع آخر :" **وَيومَ تَقُومُ السّاعة يُقْسِمُ المُجْرِمُون مَا لَبِثوا غَير سَاعة**[1] " .

(وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي)

استخدم أسلوب القصر ؛ ليؤكد على تَخلِيه عنهم ، وطرح مسئولية إغوائهم عن عاتقه ، ولذا استخدم من طرق القصر (النفي والاستثناء) ؛ ليقطع القول ببراءته منهم ؛ وليلقي على كاهلهم بالعبء كله ، وهنا

[1] سورة الروم جزء آية ٥٥

تلعب خصائص التراكيب دورها في تدعيم القصر ، فيقدم الجار والمجرور (عليكم) ؛ ليقوي الحكم ويؤكده بأن ليس عليه إلزام لهم ؛ لانتفاء سلطته عليهم فما هو إلا داع للشر يدعو الخلق أجمعين ، والعبء واقع على من استجاب لا عليه، ويدعم هذا المعنى تنكيره للفظة (سلطان) ؛ للتحقير والتقليل ، لينفي سلطته عليهم ولو بأقل القليل ، ولو بالقدر الحقير ؛ ليسلخ نفسه من حيز المسؤولية ، ويثقل كاهلهم بتحمل عبء ضلالهم ، ونتيجة سفههم ، وهنا أجده يعطف بالفاء بين (دعوتكم واستجبتم) ؛ ليوضح أن استجابتهم لوسواسه وقعت سريعا فبمجرد الدعوة للضلال ضلوا ؛ وكأن نفوسهم كانت مهيأة للوقوع في الضلال ، والحق أنه لا يزال يتربص بهم كل السبل يأتيهم عن يمينهم ويسارهم ومن أمامهم ومن خلفهم حتى يضلوا ، ولكن ديدنه التبرء وذاك من خبثه ولؤم طبعه ، وقال (استجبتم) بزيادة السين والتاء ، ولم يقل : أجبتم ؛ ليدلل على أنهم اتبعوا هواهم فوافق هواهم إغواء الشيطان ؛ ليجعل لهم دورا في الغواية والبعد عن الصراط المستقيم ؛ وكأن غواية الشيطان وقعت من نفوسهم موقع الراغب فيها الطالب لها ، فبهذا الوزن (استفعلتم) يرفع إبليس عن نفسه الحرج ويلقي بالذنب عليهم متبرئا منهم .

(فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ)

"(فلا تلوموني) بوعدي إياكم ؛ حيث لم يكن ذلك على طريقة القسر ... (ولوموا أنفسكم) ؛ حيث استجبتم لي باختياركم حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل بمجرد تزيين وتسويل ، ولم تستجيبوا لربكم ؛ إذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبينات والحجج[1]."

[1] تفسير أبي السعود ٤٢/٥

والأمر والنهي في قوله تعالى :" لا تلوموني ولوموا أنفسكم " للتحسير ؛ ليبث في قلوبهم الحسرة والندامة ، فسبيله معهم سبيل الانتقام من البداية يوم توعدهم وقال :" لأَقْعُدَنَّ لَهُم صِرَاطَكَ المُستقِيم".

(ما أنا بمصرخكم[1] وما أنتم بمصرخي) أي : ما أنا بمجيركم من العذاب وما أنتم بمغيثيني مما أنا فيه ، واستخدم الجملة الاسمية ؛ لتدل على ثبات المعنى بعدم نفع بعضهم بعضا ، وذلك لأنهم لما استغاثوا به وطلبوه شفيعا لهم يوم القيامة وبخهم بأن ما هم فيه ناتج لضلالهم وأكد لهم أن ليس لهم مفر من حكم الله في يومهم هذا .

وذكر قوله : " وما أنتم بمصرخي " مع أنه معلوم ؛ إذ من هم في أشد الحاجة لمن يغيثهم لن يغيثوا غيرهم ، ولكنه ذكره تقريعا وتوبيخا ولوما لهم ؛ إذ لجأوا إليه في مثل ذلك اليوم وحاله أسوأ من حالهم ، فإن افتقروا إلى النصير فهو إليه أفقر، هذا ومن جانب آخر فإن تعبيره هذا يدل على سوء نفسيته ، ووصوله إلى مرحلة الإحباط القصوى واليأس التام ؛ مما جعله يثور فيهم محملهم عبء أفعالهم ، ومنفسا عن غيظه في وجوههم ؛ حيث أصبح أسير العذاب يترقب جحيم جهنم ، فلا حاجة له فيمن يحمله هما على همه ، إلى جانب أنه في أصعب أحواله لا يزال يحقد عليهم ويكيل لهم أسىً فوق أساهم .

وفي الآية الكريمة تقدم المسند إليه المنفي (أنا - أنتم) على خبره غير الفعلي ، وهذا التركيب مُختلف فيه بين جمهور البلاغيين بين إفادته القصر قطعا ، أو إفادته مجرد تقوية الحكم على النحو التالي :

[1] المستصرخ : المستغيث ، تقول : استصرخني فأصرخته / اللسان مادة (صرخ)

١. فريق يرى أن هذا التقديم لا يفيد التخصيص ؛ لأن الخبر ليس فعليا وهم :

أ) الإمام عبد القاهر الجرجاني : يقول رحمه الله : "ومما هو مثال بين في أن تقديم الاسم يقتضي وجود الفعل : **وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضرمت في القلب نارا**[١] "

ب) الخطيب القزويني : يقول رحمه الله : " إن ذلك مشروط بكون الخبر فعليا[٢] "

ج) سعد الدين التفتازاني : يكاد يكون أميل لرأي هذا الفريق ؛ لنقله كلام الخطيب المؤكد لكلام الإمام عبد القاهر – رحمه الله – مُعلقا على البيت المختلف فيه ، والذي تقدم فيه المسند إليه على الخبر غير الفعلي[٣] قائلا: لكن في بيان كون التقديم مفيدا لزيادة التخصيص نوع خفاء[٤]"

وهذا يعني أنه أميل إلى وجوب كون الخبر فعليا[٥] .

---

[١] الدلائل ص١٢٥

[٢] الإيضاح للخطيب القزويني – شرح/ محمد عبد المنعم خفاجي م١/٢/٥٢ ط٣ دار الجيل –بيروت – بدون تاريخ

[٣] أعني قول الشاعر :

متى تهززّ " بني قطن " تجدهم سيوفا في عواتقهم سيوف

جلوس في مجالسهم رزان وإن ضيف ألم فهم خفوف

[٤] المطول / لسعد الدين التفتازاني ص٢٤٥ط ١ بيروت لبنان ١٤٢٥هـ /٢٠٠٤م

[٥] ينظر : التفتازاني وآراؤه البلاغية -د/ ضياء الدين القالش ص٣٦١ ط١ دار النوادر – سوريا ١٤٣١هـ ٢٠١٠م

٢. وفريق يرى أن هذا التركيب يفيد القصر قطعا ، ولا يشترط كون الخبر فعليا وهم :

أ) أبو يعقوب السكاكي : لم يشترط الشرط المذكور ، ومثّل بقول الشاعر المذكور فيه (هم خفوف)[١] .

ب) الزمخشري : حيث ذهب إلى وجود الحصر والاختصاص[٢] في قوله تعالى : " وما أنت علينا بعزيز[٣] " ، ولا يخفى أن الخبر هنا ليس فعليا .

ج) الإمام الطيبي : حيث ذكر ما قاله الزمخشري في معرض قوله تعالى :" وما أنت علينا بعزيز " قائلا :" إنه ملحق بالفعل في التقوى والتخصيص[٤] "

وأخلص من هذا إلى أن التقديم في قول الله تعالى :" ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي " قد يفيد: ١. مجرد تقوية الحكم (بأن الشيطان لا يغيثهم في يومهم هذا كما يؤكد على أنهم لا يجيرونه من عذاب الله أيضا) وهذا على الرأي الأول ؛ لأن الخبر ليس فعليا .

٢. وقد يفيد القصر قطعا على أن المعنى (أن الشيطان لا يغيثهم ولكن غيره قد يجيرهم من عذاب الله ، وهم أيضا لن يغيثوه ولكن قد يغيثه غيرهم) وهذا على الرأي الثاني الذي يرى الحصر في المسند إليه

---

[١] مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي ص١٩٦

[٢] ينظر: تفسير الكشاف ص ٢٨٩

[٣] هود جزء آية ٩١

[٤] التبيان في البيان للإمام الطيبي التبيان في البيان للإمام الطيبي / تحقيق / عبد الستار حسين ص٢٨٥ ط١ دار الجيل – بيروت ١٤١٦هـ ١٩٩٦ م

المتقدم على خبره وإن لم يكن فعليا ، ولا يخفى ما فيه من فساد المعنى ؛ إذ لا ناصر للكفار من دون الله لا الشيطان ولا غيره ، وكذلك لا مغيث للشيطان من دون الله لا أهل جهنم ولا غيرهم ، وعليه أميل للرأي الأول القائل بأن تقديم المسند إليه المنفي على خبره غير الفعلي يفيد تقوية الحكم لا القصر ؛ لفساد المعنى بالقصر .

(إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "

"(ما) مصدرية ، و(من قبل) متعلقة بـ(أشركتموني) أي : كفرت اليوم بإشراككم إياي لله من قبل أي في الدنيا أي كفرت اليوم بجعلكم مني شريكا لله في الدنيا ومعبودا من سواه ، أو (ما) موصولة ، و(من قبل) متعلقة بـ(كفرت) ، أي كفرت من قبل بالذي أشركتموني وهو الله حين أبيت السجود لآدم[1]" .

أعلن في ذلك اليوم كفره الصريح ؛ ليتم له التبرأ منهم ، فعلى كل وزره ، مؤكدا لهم القول بـ(إن) ؛ لينفي الشك والتردد في قوله ، فيومهم هذا يقتضي الذهول ، فلربما توهموا أنه سيعود لنصرتهم ، فألقى لهم القول مؤكدا ؛ ليزيل الشك ويقطع بإزالته الأمل ويغلق في وجوههم كل باب انتظروا منه الرحمة .

والقول كله على زمن المضي ، ويوم القيامة مستقبل لم يأت بعد ، ولكنه وضع الماضي موضع المستقبل ؛ قطعا بوقوعه ، فإذا قال الله للشيء كن فيكون ، لا تردد ولا شك ، ولا محالة من وقوعه ، وفيه نزع لصدور الضالين المنغمسين في شهواتهم وتذكير بما سيحدث لهم في يوم قدره

[1] منقول بتصرف ، ينظر فيه : تفسير الزمخشري ٥٥٠ ، وتفسير أبي السعود ٤٣/٥

الله ؛ حتى يتنبهوا لذلك ويصلهم النذير ، فإذا وصلوا ليومهم هذا لم يغن عنهم من الله شيئا .

وقوله تعالى :" إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "

قيل من تتمة كلام الشيطان ، وقيل ابتداء كلام من الله – عز وجل - ، وعلى كلا الحالين هو تذكير ووعظ بتنكر الشيطان من أتباعه يوم القيامة وتبرأه منهم ؛ ليحذر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وأكد فيه القول بـ(إن) ؛ لينص على حتمية سوداوية المصير لمن ظلموا أنفسهم بضلال الكفر .

واستخدم في الفاصلة لفظة (أليم) دون (عظيم) أو (مهين) فجعل للظالمين عذابا أليما ؛ ليناسب ألم العذاب الحسي مرارة الإخفاق المعنوية ؛ حيث تخلى عنهم معبودهم الشيطان في أحلك ظروفهم وتركهم للعذاب بل وحملهم مسؤولية استجابتهم له ، وفي ذلك التخلي ألم نفسي تغص منه الحلوق ؛ إذ يقوم النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – شفيعا للمؤمنين فينصفهم ويعلي قدرهم ، أما الضالون فيطرقون باب الشيطان وقد كُسرت نفوسهم وذاقوا الذل والهوان ، فيقوم الشيطان فيهم خطيبا يذيقهم ذلا على ذلهم وهوانا وصغارا وألما نفسيا لا حدود له ، فناسب ذلك الألم النفسي لتلك النفوس الذليلة بفاصلة ختم بها وضح فيها أن لهم فوق ذلك العذاب النفسي عذاب أليم بدني يذوقونه في مقرهم الأبدي .

وفي الموضع الثالث الذي تحدث فيه الشيطان مع الإنسان يقول فيه المولى تبارك وتعالى في سورة الحشر : " **كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ** "

والمثل هنا للمنافقين الذين وعدوا اليهود أن يقاتلوا معهم ضد رسول الله على ألا يخذلوهم ولا يطيعوا فيهم أحدا من النبي محمد- صلى الله عليه وسلم – وأصحابه وهم في وعدهم كاذبون ، وفي نصرتهم لا يُنصرون ، ففي آية سابقة قال تعالى :" **ألَم تَرَ إلى الّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُون لإخوَانِهِم الّذِين كَفرُوا من أهْلِ الكِتَابِ لَئِن أُخرِجْتُم لَنَخرُجَنّ معكم ولا نُطِيعُ فِيكُم أحداً أبدا وإنْ قُوتِلتُم لننْصُرنّكُم واللهُ يشهد إنهُم لَكَاذِبُون**"

وقد شبههم أولا بالمشركين من أهل بدر يوم أن ذاقوا العذاب في الدنيا على يد المؤمنين ، وفي الآخرة بكفرهم ، وقيل بيهود بني قينقاع ، قال تعالى :"**لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**"

ثم شبههم ثانيا بهيئة الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر تبرأ منه .

وضرب المثل بالشيطان هنا يعني به ما وقع من وعده للمشركين يوم بدر يوم أن قال لهم ما ورد في الذكر الحكيم :" لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم " ثم تخلى عنهم لما تراءت الفئتان ، وقيل يعني

بقول الشيطان هنا ما وعد به الراهب من النجاة حين دخل عليه القوم ليقتلوه[1] .

وبلاغة التمثيل تكمن في بيان انحطاط قدر المنافقين حتى شُبهوا بالشيطان ؛ وذلك لأنهم لا يظهرون كفرا صريحا بل هم أشد من الكفار يبطنون خلاف ما يُظهرون ، فهم يشتركون مع الشيطان في المراء والباطن الخبيث ، ألا يظهر الشيطان للإنسان المودة ويتقرب إليه بكل سبيل فإذا أطاعه تخلى عنه وتركه بندم عمره كله وحسرة قلبه .

وقوله للإنسان : (اكفر) الأمر فيه على سبيل النصح المزعوم والإرشاد الباطل المزخرف .

ودوره في التخلي يأتي بعدما يقع الإنسان في المحظور كما في الموضعين السابقين أفاد ذلك (**لما**) في قوله :" **فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ** " ؛ ولذا عبّر بالماضي في الفعل (كفر) ؛ ليطمئن قلبه إلى تحقق وقوع الكفر من الموسوس له ، فلا يتخلى إبليس عن صاحبه إلا بعد اليقين التام بكفره أو وقوعه في المهلكة ، ففي الموضع الأول لم يتركهم إلا بعد نزولهم ساحة القتال حين رأى الملائكة تتنزل من السماء ؛ فتركهم في أحلك أوقاتهم ، وفي الموضع الثاني لم يعلن تخليه عنهم صراحة إلا يوم

---

[1] قيل في مناسبة الآية : " المراد استغواؤه قريشا يوم بدر "/ تفسير الزمخشري ص١٠٩٦ ، وقيل في مناسبتها : " إن راهبا تعبد ستين سنة ، وإن الشيطان أراده فأعياه ، فعمد إلى امرأة فأجنها ولها أخوة ، فقال لإخوتها : عليكم بهذا القس فيداويها ، قال : فجاؤوا بها إليه فداواها ، وكانت عنده ، فبينما هو يوما عندها إذ أعجبته ، فأتاها فحملت فعمد إليها فقتلها ، فجاء أخوتها ، فقال الشيطان للراهب : أنا صاحبك ، إنك أعييتني أنا صنعت هذا بك فأطعني أنجك مما صنعت بك ، اسجد لي سجدة ، فسجد له ، فلما سجد له قال : إني برئ منك إني أخاف الله رب العالمين ." تفسير الطبري ٢٨/٣٣

القيامة بعد أن حُكِم عليهم أنهم من أهل النار ، وهنا تخلى عن الإنسان بعد أن كفر وتحقق من كفره .

وهنا يقول له بكل ثقة :" **إني برئ منك** " مؤكدا القول ومحققا لبراءته من صاحبه الذي اتبعه في ضلاله ، ودائما ما يؤكد الشيطان في لحظة التخلي ؛ حتى لا يدع في قلب صاحبه مجال للشك في نصرته أو عودته للدفاع عنه ، ففي الوقت الحذر يتركه وحيدا بنائبته ، ولا يكتفي بقوله : (برئ) حتى يخصه بالبراءة منه فيقول : " إني برئ منك " ؛ ليزيده حسرة على حسرته وندما على ندمه .

(إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

إن كان المراد واقعة يوم بدر فالمراد بخوف الشيطان هنا خوفه من جبريل والملائكة حيث رآهم يتنزلون يوم بدر بقوةٍ من الله – كما مر بيانه – وإلا فهو كاذب في ادعائه الخوف من الله ، ولو خاف الله لسجد لآدم كما أمره الله ، ولو خاف الله لطلب الصفح والمغفرة منه بدل طلبه الإنظار إلى يوم يبعثون ، ولو خاف الله لما تحداه في إغواء عباده ، هو كاذب ككذبه في إغوائه حتى ولو أكد القول ؛ ولذلك أتى بعده قول الله تعالى :" **فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ** "" ، فالظلم هنا ظلم النفس قبل أي ظلم آخر ، ومن ظُلم النفس الكذب والبهتان ، فإن قال إبليس خيرا فقوله مخالف لباطنه ؛ ولذا شبّه الله المنافقين به ، فما به من خوف من الله كما أن المنافقين ما بهم خشية ولا إيمان يقول تعالى :" **لأنتُم أَشد رَهبةً في صُدورِهم مِن الله** " ثم شبههم بالشيطان في فعله وقوله حيث مخالفة الظاهر للباطن ، والقول للفعل والعمل .

وجعل الله – جل شأنه – عاقبة الضال والشيطان عاقبة واحدة فجمعهما في قوله تعالى :" فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها " ؛ ليضحض الأعذار والحجج على أهلها ممن اتبع الشيطان وسار على دربه ؛ وليجمعه بمن اتبع في مصير واحد ، وفيه من التحذير قدر كبير لمن عقل ووعى .

نظرة حول الأسلوب الحواري لإبليس

- بالنظر إلى أسلوب إبليس في الحوار مع رب العالمين أجد حواره يتحول إلى المراء ، ومعنى المراء : " **الجدال بالظنون الكاذبة ، والتخرصات الباطلة ، فهو الجدال بالباطل وعن الباطل.**"[1]؛ حيث حكم قاطعا بأفضليته على آدم – عليه السلام - ؛ لخلقه من النار؛ توهما منه أن النار أفضل من الطين ، فبنى حكمه على باطل ؛ إذ لا أفضلية للنار على الطين ؛ فكل منهما عنصر له خصائصه ومميزاته ، ووجه النفع فيهما يختلف بحسب طبيعة العنصر ، ثم النظر للمخلوق لا مما خُلق ؛ ولذا وضّح له الله – عز وجل – أنه – جل علاه – خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه ، بمعنى أن الأمر خارج عن حدود القياس ، ولكن قاس إبليس بعقله فأخطأ ، ثم بنى على خطئه ، فأساس البناء كان على الظن الكاذب ، والوهم الباطل ، المعلل بالحجة الواهية ، فاتبع أسلوب الحوار الحجاجي ، وغايته إقناع رب العزة بحجته ؛ ليفلت بفعلته وينجو من العقاب ، فقال (خَلقتني من نارٍ وخلقته من طين) " **وذلك بإقامة البرهان عن**

[1] أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة د/ حمد بن إبراهيم العثمان ١٨ ط١ دار ابن القيم بالكويت د.ت

طريق التحاكم إلى العقل[1] " فقاس على حدود عقله ، وتناسى أن الأمر خارج عن حدود القياس .

- وإبليس في حواره لا يتبع آداب الحوار ؛ فبدا غير متجرد من الهوى ، بل اتبع هواه وسار وراء رغباته في التفضيل على آدم – عليه السلام – ثم الانتقام منه ومن ذريته ، ومتحررا من الأدب في خطابه مع رب العزة ، وظهر ذلك في قسمه وتأكيده وإعلانه التحدي الصارخ لرب العالمين .
- أما أسلوبه في حديثه لآدم فيبدو لينا رقيقا ؛ حيث التناسب مع شخصية الناصح الأمين التي قام بتمثيلها لآدم وزوجه – عليهما السلام – فينادي آدم – عليه السلام – باسمه وينصح ويقسم على نصحه ، ويتقرب بكل سبيل كان حتى يدرك غايته .

- وبالمقارنة بين أسلوب الحديث في المواضع الثلاثة التي خاطب فيها الضالين يتضح اتفاقها جميعا في نهج واحد وخطة متحدة ؛ حيث **التودد للبشر** ؛ ففي الأنفال (وإِذْ زَيَّنَ لهُم الشيْطانُ أعمالهُم) ، وفي الحشر (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ).
- ثم **التأكيد لهم على الإخلاص وصدق القول** ، والتزيين بكل سبيل ممكن ، ففي الأنفال(وقَالَ لا غَالبَ لَكُم اليَومَ منَ النّاس وَإِنّي جَارٌ لَكُم)

---

١ ينظر : سيكولوجية القصة في القرآن للتهامي نقرة ٤١٧ ط١ الشرعية التونسية ١٩٧١م

- **حتى وقوعهم في الذلل** ، ففي الأنفال (فَلَمَّا تَرَاءَتِ الفِئَتَانِ) ، وفي إبراهيم (إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ) ، وفي الحشر (فَلَمَّا كَفَرَ)
- **فإذا وقعوا في الضلال تركهم في وقتهم العصيب ثم يبرئ نفسه** ، ففي الأنفال (نَكَصَ على عَقبيهِ وَقَال إنّي بريءٌ منكُم إنّي أرَى ما لا تَرونَ) ، وفي إبراهيم (وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ) وفي الحشر (قَالَ إِنّي بَرِيءٌ مِنْكَ).
- **ثم يدعي خوفه من الله** ، ففي الأنفال (إِنّي أَخَافُ اللهَ واللهُ شَديدُ العِقابِ) ، وفي إبراهيم (إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ، وفي الحشر (إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ).

وألمح في التراكيب الواردة على لسانه كثيرا من المؤكدات التي يستخدمها كوسيلة لخداع الضالين مع الإكثار من الفعل الماضي الدال على التحقق ، فإذا انخدع الإنسان تبرأ منه بقوة وتأكيد أكثر مما أكده له حين أوهمه أن له ناصح أمين –أعاذنا الله من خبثه ولؤمه-.

الخاتمة

بسم الله افتتحت ، وبسم الله أختم ، وبسم الله في كل وقت وحين ، والصلاة على خاتم المرسلين محمد عبدِ الله الأمين عليه صلوات الله وملائكته أجمعين وبعد .

كانت تلك تأملات في آيات من كتاب الله عن حوار إبليس مع رب العزة – عز وجل – وعن حديثه لخلق الله ، اهتديت من خلالها لنتائج أذكر منها :

- **أكّد** المولى – جل علاه – سجود الملائكة لآدم – عليه السلام بلفظي (**كل – أجمع**) في الموضعين اللذين ذكر فيهما أن آدم – عليه السلام – خُلق من طين في قوله تعالى:" **وَإِذ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنّي خالِقٌ بَشَرًا مِن صَلصالٍ مِن حَمَإٍ مَسنونٍ**" ، وقوله تعالى :"**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ**" ، أما في الموضعين الآخرين اللذين لم يذكر فيهما الجنس الذي منه خُلق آدم قائلا :" **قُلنا لِلمَلائِكَةِ اسجُدوا لِآدَمَ فَسَجَدوا إِلّا إِبليسَ**" فذكر فيهما سجود الملائكة دون تأكيد وذلك ؛ ليبطل لإبليس علته التي ادعاها لعدم السجود ؛ وهي كونه مخلوق من النار في حين أطاع الملائكة في تنفيذ الأمر بالسجود وخلقهم أشرف من خلق إبليس فهم خلق النور.
- يكثر الاستفهام في المواضع الأربعة التي تحدثت عن قصة السجود لآدم كعامل أساسي لتنشيط الحوار وإبراز ما استتر في نفس إبليس .

- يدور الاستفهام حول التوبيخ من المولى – عز وجل – لإبليس اللعين في المواضع التي تحدثت عن قصة السجود لآدم – عليه السلام – ويشفع الاستفهام بجملة تدعم التوبيخ في كل موضع من تلك المواضع ، ففي الأعراف يُدعِم بقوله : " **إذ أمرتك** " ؛ ليجعل من أمر الله له ثم رفضه لذلك الأمر مزيدا في التوبيخ ، وفي الحجر يُدعِم التوبيخ بقوله :"**مع الساجدين**" أي بكونه في معية الملائكة فسجدوا هم وأبى هو ، وفي (ص) يُدعِم التوبيخ بقوله تعالى :" **لما خلقت بيدي** " أي بكونه رفض السجود لمن شرفه الله فخلقه بيديه.
- في أغلب المواضع التي تحدثت عن قصة إبليس يتحدث إبليس بشيء من اللين عندما طلب من المولى تأخيره ليوم يبعثون ؛ أي قبل إجابة طلبه إلا في سورة الإسراء فتشتد لهجته ويعلن عن حقده مكثرا من الاستفهام الإنكاري ؛ توضيحا لعلة امتناعه عن السجود.
- يغلب التأكيد وتعلو نبرة الحوار من طرف إبليس في المواضع الأربعة بعد أن تمكن من طلبه وأخبره الله تعالى أنه من المنظرين؛ حيث يكثر في حديثه التأكيد والوعيد لبني آدم، فيجري حديثه على طريقة الخبر الإنكاري المدعم بأكثر من مؤكد بالقسم وباللام وبنون التوكيد .
- لهجة إبليس في سورة الإسراء من أشد اللهجات عنفا ، لذا أكثر فيها المولى من فعل الأمر المحبط لعمل إبليس ، مفصلا له ما سيفعله مع البشر مسبقا ؛ ليكشف ستره ويخيب ظنه .

- في حديث إبليس ووسوسته لآدم وحواء أجمل الحديث في سورة طه بقول واحد هو ذاته الوسوسة ، بينما فصّل الحديث في سورة الأعراف ، وأطال في مراجعتهما فجعل الوسوسة شيئا والقول شيئا آخر .
- بالنظر للمواضع الثلاثة التي تحدث فيها الشيطان مع الإنسان أو مع أهل النار من الإنس والجن أجد أن الشيطان لا يُظهر حقيقته إلا بعد أن يقع الموسوس له في المحظور ؛ ففي سورة الأنفال لم يتبرأ منهم إلا بعد أن تراءت الفئتان ، قال تعالى :" فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه " ، وفي سورة إبراهيم لم يعترف بالحق إلا بعد أن قضى الله بين الناس وعلم كل مصيره من الجنة أو النار ، قال تعالى :" وقال الشيطان لما قُضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم " ، وفي سورة الحشر لم يتبرأ من الإنسان إلا بعدما كفر ، قال تعالى :" فلما كفر قال إني برئ منك " .
- يغلب التأكيد على حديث الشيطان في كل المواضع التي تبرأ فيها من الإنسان بعد كفره ، فهو غالبا ما يؤكد بـ(إن) ؛ ليرفع من قلوبهم توهم عودته لنصرتهم ، ففي الأنفال : " إني برئ منكم - إني أرى ما لا ترون – إني أخاف الله " ، وفي إبراهيم :" إن الله وعدكم وعد الحق – إني كفرت بما أشركتموني من قبل – إن الظالمين لهم عذاب أليم "، وفي الحشر :" إني برئ منك – إني أخاف الله رب العالمين ".

تباركت ربي أنعمت علينا بكتاب عزيز أُحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، أودعت في كتابك العزيز من الأسرار ما لا يحيط به إلا لطيف خبير ، وما لي سوى الاستعانة بك والتوكل عليك ، فإن كنت قد أحسنت فمن فضلك ونعمتك علي ، وإن لم أكن فعذري أني اجتهدت وما الكمال إلا لك ، بك حولي وقوتي ولا حول ولا قوة إلا بك " رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ".

المصادروالمراجع

- القرآن الكريم

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود) للإمام أبي السعود محمد بن محمد العمادي ط١ دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان د.ت
- أساليب النفي في القرآن د / أحمد ماهر البقري ط١ المكتب العربي الحديث بالإسكندرية ١٩٨٩م
- أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة د/ حمد بن إبراهيم العثمان ط١ دار ابن القيم بالكويت د.ت
- الإيضاح للخطيب القزويني – شرح/ محمد عبد المنعم خفاجي ط٣ دار الجيل –بيروت – د.ت
- التبيان في البيان للإمام الطيبي - تحقيق / عبد الستار حسين ط١ دار الجيل – بيروت ١٤١٦هـ ١٩٩٦ م
- التفتازاني وآراؤه البلاغية -د/ ضياء الدين القالش ط١ دار النوادر – سوريا ١٤٣١هـ ٢٠١٠م
- تفسير القرآن العظيم لإسماعيل بن عمر بن كثير – تحقيق : سامي بن محمد السلامة ط٢ دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م
- تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي – تحقيق : د. علي محمود مقلد ط١ دار مكتبة الحياة – بيروت لبنان د.ت

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بـ" تفسير الطبري "للإمام محمد بن جرير الطبري- تحقيق :/عبد الله بن عبد المحسن التركي ط١ دار هجر للطباعة والنشر ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م
- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): أَبُو عَبْدِ اللّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أبي بكر القرطبي -تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ط٢دار الكتب المصرية – القاهرة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م .
- الجامع لشعب الإيمان / لأحمد بن حسين البيهقي – تحقيق : مختار أحمد الندوي – عبد العلي عبد الحميد حامد في باب : ط١ مكتبة الرشد ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م
- الجنى الداني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المرادي – تحقيق : فخر الدين قباوة – محمد نديم فاضل ط١ دار الكتب العلمية ببيروت ١٤١٣هـ ١٩٩٢م
- الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني ط٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب د.ت
- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني – تحقيق/ محمود محمد شاكر ط٣ مطبعة المدني بجدة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الألوسي البغدادي ط١ دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان د.ت

- سيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم - / محمود المصري ط١ مكتبة الصفا ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م
- سيكولوجية القصة في القرآن للتهامي نقرة ط١ الشرعية التونسية ١٩٧١م
- شرح التصريح على التوضيح لخالد بن عبد الله الأزهري ط١دار إحياء الكتب العربيّة- مصر د.ت .
- شرح الكافية في النحو-لرضي الدين الاستراباذي (ابن الحاجب) ط١ بيروت ١٩٧٩م
- شرح المفصل للزمخشري يعيش بن علي المعروف بابن يعيش ط١ دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م
- صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري - تحقيق: نظر بن محمد الفاريابي ط١ دار طيبة ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م
- فتح القدير: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ط١ دار ابن كثير دمشق، بيروت١٤١٤ هـ
- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام د/ طه عبد الرحمن ط٣ المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء بالمغرب ٢٠٠٧م
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله الزمخشري – تعليق/خليل مأمون شيحا ط٣ دار المعرفة بيروت –لبنان ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م
- لسان العرب لابن منظور ط١ دار المعارف ١٩٨١م .

- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل د/ فاضل السامرائي ط٣ دار عمار ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م
- مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر الرازي ط١ المكتبة العصرية – بيروت ١٩٩٩م
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي) :أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي – حققه : يوسف علي بديوي ط١ دار الكلم الطيب، بيروت ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م
- المصنف لعبد الله بن محمد أبي شيبة - تحقيق: حمد بن عبد الله – محمد بن إبراهيم ط١ مكتبة الرشد ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م .
- المطول لسعد الدين التفتازاني ط ١ بيروت لبنان ١٤٢٥هـ /٢٠٠٤م
- مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي ط٢ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧م
- من أسرار اللغة للدكتور إبراهيم أنيس ط١ لجنة البيان العربي ١٩٥١م